الحياة الاجتماعية والاقتصادية للمدجنين في مدينة وشقة من خلال الوثائق العربية المحفوظة في كاتدرائية وشقة

المدرسة المساعدة
أنسام غضبان عبود
جامعة البصرة- كلية الآداب

المقدمة :

منذ ان فتح المسلمون بلاد الاندلس عاش السكان مسلمون ومسيحيون ويهود على اختلاف اجناسهم واعرافهم شعباً واحداً في ظل حكومة تحكم باسم الاسلام لكنها لا تفرق بين المسلمين وغيرهم ولقد استطاع الحكام المسلمون –حتى عصر المرابطين على الاقل – صون ظاهرة التعايش السلمي بين الاديان والاعراق المختلفة في الاندلس وللمرء ان يتصور كيف كان ذلك المجتمع تتناغم فيه الالسن على اختلافها : العربية ، الرومانسية (*) ، القشتالية ، القطلانية ، وغيرها من اللغات التي انتشرت في الاندلس . وتمتزج فيه الدماء العربية ، الافريقية ، الاسبانية وتتآلف فيه الاديان الاسلام ، المسيحية ، اليهودية . وقد كان لكل ذلك اثره في تكوين المنظومة الاجتماعية والثقافية في الاندلس . ان الباحث في تاريخ اسبانيا الاسلامية يمكنه ان يكتشف كيف ان جميع الشعوب قد انصهرت في بودقة الاندلس الواحدة التي تفردت عن غيرها من بلاد الاسلام .

ان سقوط الحواضر الاسلامية في الاندلس وانحسار النفوذ العربي والمد الاسلامي عنها وما رافقه من تداعيات شكل نقطة تحول مهمة في تاريخ الاسلام في الغرب . فقد رافق كل تلك التحولات الخطيرة الكثير من الظواهر الاجتماعية والاقتصادية المهمة . بعد احداث السقوط . ان الوجود العربي الاسلامي العميق في الاندلس والذي امتد الى اكثر من ثمانية قرون لم يكن من الممكن اجتثاثه بسهولة وحسم . سياسياً فقد

تحقق ذلك عندما استولى النصارى على الاراضي الخاضعة لسلطان المسلمين لكن اجتماعياً واقتصادياً فقد تطلب ذلك وقتاً طويلاً وجهوداً كبيرة وحتى اليوم وبعد مرور قرون طويلة على ضياع الاسلام في تلك البلاد فان الطابع العربي لا يزال يطبع جوانب من المجتمع الاسباني ويجعله مختلفاً عن غيره من المجتمعات الاوربية الاخرى .

ان الدراسة تسلط الاضواء على الحياة الاجتماعية والاقتصادية للمسلمين في احدى المدن الاسبانية وهي مدينة وشقة التي سقطت في يد النصارى بعد ان عاشت في ظل الاسلام ما يزيد على ٣٨٠ سنة ومن الطبيعي ان السلطة السياسية الاسبانية ورثت مجتمعاً معقد التركيب كما ذكرنا تعددت فيه العناصر الدينية والقومية والثقافية والحضارية . ولم يكن من المنتظر ان ينظر الاسبان الى المسلمين الذين كانوا تحت حكمهم بنفس نظرة التسامح التي كان ينظر بها المسلمون للنصارى الذين عاشوا تحت حكمهم ايام دولة الاسلام . وحتى لو رأينا شيء من ذلك التسامح في بداية حركة الاسترداد المسيحي فان ذلك سرعان ما بدأ بالتغير مع سقوط المزيد من المدن الاسلامية وتعاظم الروح الصليبية عند النصارى .

وبعد فان موضوع الدراسات المدجنية والموريسكية عموماً يعد موضوعاً مترامي الاطراف كلما ازداد التعمق فيه انفتحت فيه افاق جديدة وتقدمت فيه الرؤى والاستنتاجات وهو جزء لا يتجزأ من تاريخ حافل بالامجاد والماثر كما هو حافل بالمحن والنكبات الا وهو تاريخ العرب في الاندلس .

المبحث الاول

(١) الموقع الجغرافي : -

تقع مدينة وشقة في الجزء الشمالي الشرقي من شبه الجزيرة الايبرية وحسب تقسيم الادريسي لاقاليم الارض فانها تقع في الاقليم الخامس منها ويحدها من الجنوب الغربي مدينة سرقسطة التي تبعد عنها خمسين ميلاً والى الشمال الغربي منها تقع مدينة تطيلة.كما ويحدها من الشرق جبال البرت والى الجنوب الشرقي منها تقع مدينة لاردة [١].

تعد مدينة وشقة احدى اهم مدن الثغر الاعلى الاندلسي والذي يشمل في الجغرافية الاندلسية مدينة سرقسطة – وهي عاصمة الثغر – وأعمالها وهي مدن : تطيلة ، وشقة ، بربشتر ، لاردة ، افراغة ، طركونة ، طرطوشة .وتشغل هذه المدن المنطقة الواسعة الخصبة التي يخترقها نهر ايبرو من مصبه عند مدينة طرطوشة حتى مدخله عند مدينة قلهرة في ولايات ثافار [٢] . كما ويقسم ذلك الثغر الى اربع اقاليم كانت وشقة تعد جزءاً من الاقليم الرابع الذي يعرف بإقليم (ارنيط) والذي يتكون من مدن قلعة ايوب وسرقسطة ووشقة [٣] .

يمر بمدينة وشقة رافدان مهمان من روافد نهر الابرو من الجانب الايمن هما نهر جلق الذي يبلغ طوله (١٤٩ كم) والذي ينبع من جبال الشرطانيين الفرنسية ثم يخرج من ناحية وشقة الى سرقسطة ويصب في نهر ايبرة اما الرافد الثاني فهو نهر سيغري الذي يبلغ طوله (٢٦٥ كم) ويعرف احياناً بنهر لاردة وينبع من جبال الشرطانيين ايضاً [٤] ويشكل هذان الرافدان مصدراً مهماً للمياه في المدينة وعاملاً من عوامل ازدهار زراعتها التي كانت تمثل عصب الحياة الاقتصادية فيها بالاضافة الى اعتمادها على بعض الصناعات الحرفية التي اشتهرت بها المدينة ، لما كانت تزخر به من معادن مهمة كالحديد والنحاس التي كان يصنع فيها الدروع والبيضات وغيرها [٥] .

(٢) سقوط مدينة وشقة ومصير مسلميها :

كانت مدينة وشقة بقربها من مملكة اراغون ووقوعها ضمن منطقة التوسع الاراغوني تثير اطماع اراغون وبخاصة انها كانت الباب الشمالي الشرقي لمدينة سرقسطة عاصمة الثغر الاندلسي . ولما كانت الاندلس في تلك الفترة تجتاز مرحلة من الضعف والتشتت بصورة عامة والصراع المحتدم بين ابناء الاسرة الهودية حكام منطقة الثغر الاعلى بصورة خاصة ، فان ملوك الاسبان في قشتالة واراغون حاولوا الاستيلاء على ما يمكن الاستيلاءعليه من الاراضي المجاورة فسقطت طليطلة في يد الفونسو السادس ملك قشتالة عام (٤٧٨ = ١٠٨٥ م) وكان سقوطها ضربة قاصمة للمسلمين في الاندلس فقد كان موقع طليطلة وسط الاندلس مؤذناً بفصل الثغر الاعلى عن المناطق الجنوبية والانفراد بكل شطر على حدة وبالرغم من دخول المرابطين وانقاذهم للكثير

من المدن الاندلسية وانتصارهم على الاسبان في معركة الزلاقة عام(٤٧٩ هـ = ١٠٨٦ م) [٦] الا انهم لم يستطيعوا استرداد طليطلة .

هكذا كانت جهود الاسبان تزداد قوة وحماسة في انتزاع المزيد من الاراضي الاسلامية ، وفي تلك الاثناء كان سانشو راميرز يتحين الفرصة للانقضاض على مدينة وشقة وضمها الى حظيرة مملكته فضرب حولها الحصار مصمماً على ان لا يبرحها حتى تسقط في يده وكانت وشقة من امنع قلاع الثغر فصمدت للحصار بشدة ثم توفي سانشو راميرز فجأة في عام (٤٨٧ هـ – ١٠٩٤ م) فاستمر على متابعة الحصار ولده بيدرو الاول وتوالت الاشهر ووشقة تغالب المحاصرين حتى مضى على الحصار ثلاثين شهراً وكان حاكم سرقسطة احمد المستعين بن المقتدر بن هود قد سار في قواته وقوات حلفائه لملاقاة ملك اراغون وجنده [٧] .

ودارت المعركة بين الطرفين الى ان استولى النصارى علىالمدينة ولم يكن ذلك سهلاً بالنسبة لهم فقد استمات المسلمون في الدفاع عن مدينتهم وقتل من الفريقين جمع كبير الى ان حلت الهزيمة بالمسلمين وقتل منهم ما يناهز اثنى عشر الف عندها التمس من بقي منهم الامان لثلاثة ايام حتى يغادروا المدينة وكان ذلك اواخر ذي القعدة عام(٤٨٩ هـ = نوفمبر ١٠٩٦ م) [٨] .

لا تقدم لنا المصادر أي تفاصيل او معلومات عن مصير مسلمي المدينة فالرواية العربية لا تشير سوى الى انهم التمسوا الامان من الملك للسماح لهم بالرحيل(كما اسلفنا) وهي بهذا لا تجيب عن كثير من الاسئلة التي تطرح نفسها فهل غادر جميع المسلمين المدينة دون استثناء ام ان هناك اعداداً منهم اثروا البقاء في مدينتهم وكيف كانت صيغة الاتفاق بينهم وبين الملك ؟ سيما وان مسلمي المدينة استمروا بالمقاومة ولم يستسلموا وهذا يختلف عن كثير من المدن التي سقطت والتي سمح لمسلميها بالبقاء فيها ان هم بادروا بطلب عقد معاهدة او اتفاقية استسلام دون المزيد من المقاومة [٩] . كما حدث في مدينة طليطلة مثلاً التي تم الاستيلاء عليها بصورة سلمية ، وقبل سقوط وشقة بعدة سنوات كان هناك الكثير من الامتيازات التي منحت لمسلميها في الاتفاقية التي عقدت بين السكان والملك الفونسو السادس منها :

ان يأمن اهل المدينة في النفس والمال وان يغادرها من شاء منهم حاملين امـــوالهم وان يسمح لمن عاد منهم باسترداد املاكهم وان يؤدي المقيمون بها الى ملـــك قشـــتالة مـــا كانوا يؤدونه لملوكهم من الضرائب والمكوس وان يحتفظ المسلمون الـــى الابـــد بمســـجدهم الجامع وان يتمتعوا احراراً باقامة شـــعائرهم وان يحتفظـــوا بقضـــاتهم وشـــريعتهم . وان يسلموا لملك قشتالة سائر القلاع والحصون [١٠] .

لم تختلف سياسة مملكة اراغون عن سياسة مملكة قشتالة في هـــذا الجانـــب فقـــد تعهد ملك اراغون الفونسو الاول المحارب لسكان مملكة سرقسطة ابان استسلامها بـــالكثير من العهود التي يلخصها لنا نص ابن الكردبوس بما يلي :

((ان يسلموا (أي المسلمين) اليه (أي الى الفونسو المحارب) ويجعلـــوه فـــي يديه فمن احب منهم الاقامة على اداء الجزية خاصة اقام ومن احب ان يرحـــل بمـــا عنـــده الى حيث شاء من البلاد فله الامان ، الى ان يصل الى بـــلاد الاســـلام وعلـــى ان يســـكن الروم المدينة والمسلمون ربض الدباغين وعلى ان كل اسير يفلـــت للـــروم مـــن المدينـــة ويحصل عند الاسلام فلا سبيل لمالكه اليه ولا اعتراض له عليه فوقع على ذلـــك الاتفـــاق وانعقدت فيه بينهم عقود بالعهد الوكيد (كذا) ، والميثاق واسلموا اليه البلـــد ، فيالـــه مـــن مصاب قطع الاكباد واذهب الجلد ....)) [١١] .

وعلى الرغم من كل الامتيازات السالفة الذكر التي حصل عليها المســـلمون مـــن الملك الفونسو الاول الا ان جموعاً غفيـــرة مـــنهم قـــد غـــادرت المدينـــة بعـــد تســـليمها مباشرة يقدرهم ابن الكرديوس بـــ (٥٠٠٠٠ نسمة) ما بين ((صـــغير وكبيـــر ونســـاء وذكور ....)) [١٢] مستغلين بذلك الفرصة التي منحت لهم للرحيل ولعلهم كانوا يـــدركون ان سياسة التسامح تلك لم تكن الا مسألة مؤقتة اقتضتها ظروف المرحلة التي كانـــت تمـــر بها عملية الغزو والظروف الاقتصادية للبلاد . وان تلك العهود ستنقض فيما بعـــد جملـــة وتفصيلاً . وان لا مقام لهم في ارض لم يعد للاسلام فيها صوت يسمع .

كذلك في مملكة بلنسية التي سقطت على يـــد الملـــك خـــايم الاول ٦٣٦ هـــ = ١٢٣٨ م قد نالت هي الاخرى حظاً من تلك الامتيازات في المعاهدات البلنسية التي وقعـــت بعد الغزو المسيحي وهي لا تختلف كثيراً في مضمونها عن بقية المعاهدات التـــي وقعـــت في المدن والحواضر الاخرى والتي عرضنا لاثنين منها فيما تقدم [١٣] .

اذن فاننا نرى ان الملوك الاسبان في قشتالة واراغون فضلوا الاحتفاظ بجالية اسلامية في المدن التي غزوها في المدن التي غزوها ولم يتخذوا اجراءاً بنفيهم او ترحيلهم كلياً وسمحوا لمن اثروا البقاء منهم ولكن وفقاً لشروط معينة وردت في صيغ المعاهدات الموقعة بين الطرفين . ولم تكن وشقة الا واحدة من تلك المناطق التي سقطت في وقت مبكر جداً صحيح انها لم تستسلم كغيرها لينال اهلها شيئاً من التسامح وانهم قاوموا حتى النهاية (١٤) ، ولكن من المحتمل ان الملك بيدرو قد عاقب المسلمين بقتل عدد من قادتهم واعيانهم او فرض غرامة مالية كبيرة عليهم ثم وافق بعد ذلك على ان يغادر من شاء منهم المدينة سيما وانهم التمسوا ذلك منه . اما من بقي فكان عليه ان يلتزم ببنود معاهدة يتم توقيعها بين الطرفين على غرار المعاهدات التي تم ذكرها .

ان هناك الكثير من الدوافع الاقتصادية والسياسية هي التي دفعت الملوك الاسبان لاتباع مثل هذه السياسة ، فبالنسبة للدوافع الاقتصادية ، لم يكن بالامكان بالنسبة للملوك النصارى اخلاء المدن من سكانها المسلمين بصورة شاملة فقد كانت المصالح الاقتصادية تحتم ابقاء عدد من المسلمين للاعتماد عليهم في الزراعة والصناعة والتجارة . وحتى لو حاولت السلطة السياسية والدينية – المتمثلة بالملك والكنيسة – ذلك لم يكن النبلاء ليرضوا بمثل هذا الاجراء حيث كانوا يرون في طرد المسلمين والقضاء عليهم خراباً لهم وبواراً لارضهم وضراراً بالحياة الاقتصادية فهو يحرمها من اليد العاملة والنشيطة والمتخصصة (١٥) .

ان المدجنين (**) كانوا بين رعاياهم افضل العناصر وانشطها واكثرها مثابرة واوفرها تأدية للضرائب . وكانوا ساعد النبلاء الايمن في زراعة اراضيهم بفضل خبرتهم الواسعة في طرق الزراعة وادارة مشاريع الري وقد استأثروا بالتفوق في العلوم والفنون والمهن وكانوا ابرع الاطباء والمهندسين والبنائين وايضاً لهم الفضل في ادخال محاصيل كثيرة الى اسبانيا مثل القصب ، القطن ، الارز ، التين ، البرتقال ، اللوز ، وغيرها ، كما كانوا اساتذة الصناعات الدقيقة وكانت صناعاتهم ولا سيما المنسوجات القطنية والحريرية والفخار والجلود من اشهر الصناعات في اوربا (١٦) .

واذا عدنا للدوافع السياسية التي دفعت الملوك النصارى الى الاحتفاظ بالرعايا المسلمين واتباع سياسة التسامح معهم نجد انها لا تقل اهمية عن الدوافع الاقتصادية . وهي خشيتهم من سياسة الانتقام من النصارى المقيمين تحت حكم المسلمين في المناطق التي كانت لا تزال في ايديهم بل وحتى النصارى في المغرب وغيرها من بلاد الاسلام في الشرق [١٧] من جانب اخر ان التنافس بين الممالك الاسبانية للاستيلاء على الاراضي الاسلامية كان يدفع السلطة السياسية في كل مملكة من تلك الممالك لاتباع سياسة التسامح تجاه المسلمين لجعل المدن الاسلامية المنهارة سياسياً واقتصادياً تتسلم للجهة الاكثر تسامحاً من غيرها [١٨] على ان سياسة الاعتدال تلك لم تدم طويلاً كما انها لم تكن متساوية في كل المناطق التي كانت تحت الحكم النصراني [١٩] .

(٣) المدجنون : المعنى الحرفي والمعنى الاصطلاحي : -

دجن بالمكان دجوناً اقام به والفه وادجن اقام في بيته ودَجَن في بيته اذ لزمه وبه سميت دواجن البيوت ، والمداجنة حسن المخالطة [٢٠] اما المعنى الاصطلاحي للمدجنين فهو المسلمون الاندلسيون الذين اقاموا تحت حكم النصارى بعد سقوط مدنهم في يد الاسبان منذ وقت مبكر وبالتحديد منذ ان سقطت طليطلة في يد القشتاليين عام ٤٧٨ هـ = ١٠٨٥ م [٢١] اذ تمخضت احداث الغزو النصراني للمدن الاسلامية عن وضع جديد في شبه الجزيرة الاسبانية كان له ابعاده القانونية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتي سنتناول جوانب مهمة منها في ضوء الوثائق موضوع البحث .

ان تاريخ ظهور لفظ (مدجن) غير واضح لكنه استعمال دارج جرت به السنة المسلمين في تسمية اخوانهم الذين بقوا في مدنهم بعد سقوطها في يد الاسبان . اما النصارى في ممالكهم فقد كانوا يسمونهم (Mauri) المـاورى وتعني اهل الشمال الافريقي والافريقي الاوسط وقد ظهرت هذه التسمية في الوثائق النصرانية الرسمية والكتابات الكنسية ، وهي تسمية قديمة اطلقها الرومان على اهل الشمال الافريقي وتطور معنى لفظ (Mauri) – وما يقابله بالاسبانية – وهو (Moro) حتى صار في مقابل عربي او (مسلم) .

في نواحي مملكتي نبرة واراغون استعمل لفظ (Sarraceno) في الكلام عن من خضع لامراء هذه النواحي من المسلمين وهو الصورة الدارجة التي صار اليها لفظ (Sarracenus) اللاتيني وقد ورد هذا اللفظ بذلك المعنى في كل الوثائق التي صدرت عن ملوك كـ (الفونسو الثاني) (٥٥٨ – ٥٥٣ هـ) ١١٦٢ – ١١٩٦ م وخايمة الاول (٦٠٥ – ٦٧٥ هـ = ١٢٠٨ – ١٢٧٦ م) . ثم حل لفظ مورو محل لفظ ساراسينو واصبحت التسمية العامة لمسلمي الاندلس والمغرب . اما لفظ مدجن فقد انتقل من السنة الناس الى كتابات النصارى الذين اقاموا في بلاد المسلمين وكتبوا بالعربية غير انه تحرف على السن الاسبان في بعض الاحيان الى دَجَل ودَجر وصار الموصوف به يسمى مدجل في احيان قليلة ومدجر في معظم الاحيان وعلى هذه الصورة انتقل الى الاسبانية الدارجة فقالوا (Mudejar) واختفى اصله باختفاء العربية من السن المسلمين الذين تطاولت بهم السنون في ارض النصارى [٢٢] . وبعد سقوط غرناطة اخر معقل للمسلمين في اسبانيا عام ٨٩٨ هـ = ١٤٩٢ م فان التسمية تغيرت الى موريسكيين (Moriscos) أي المسيحيين الجدد او العرب الاصاغر واصبحت تطلق على جميع المسلمين الخاضعين لسلطان المسيحيين سواءً في المناطق التي سقطت قبل غرناطة او في غرناطة نفسها [٢٣] .

اما بالنسبة لسكان المغرب وغيرها من الدول الاسلامية [***] المجاورة فان التسمية لم تتغير ولم يعرف المسلمون في تلك المناطق الا لفظ (مدجنين) او ما اشتق منها عند الحديث عن اولئك المسلمون سواءً قبل سقوط غرناطة او بعدها عندما اصبحوا يعرفون بالموريسكيين على لسان الاسبان . كذلك في غرناطة فان التسمية استمر وجودها . ففي كتاب نبذة العصر الذي تحدث فيه مؤلفه المجهول [****] عن مسلمي غرناطة بعد سقوطها ترد الفاظ (دجن ، تدجن ، مدجنين) لكنه لا يذكر ابداً لفظة (موريسكيون) [٢٤] .

اما فيما بعد فاننا نرى في كتابات الموريسكيين المتأخرين بخاصة ان لفظة (مدجنين) تختفي من كتاباتهم ولفظة موريسكيين لا ترد ابداً . وهم عندما يتحدثون عن انفسهم او عن مواطنيهم في اسبانيا او غيرها يقولون (الاندلس) مجردة من ياء النسب او اهل الاندلس او غرناطيين او أهل غرناطة . وهذا يدل ان لفظ مدجن اختفى من بينهم

بمرور الزمن واصبح اللفظ المتداول في محيطهم هو (الاندلس) أي الاندلسيين التي تعبر في نظرهم عن هويتهم القومية والدينية اما التسميات التي اطلقها الاسبان عليهم فلم تكن الا محاولة منهم لمسخ الهوية والشخصية الاندلسية واذابتها في خضم المجتمع المسيحي (٢٥) .

وكما كان للمدجنين مكان بين الرعايا النصارى كان للنصارى مكان بين الرعايا المسلمين في الاراضي التي خضعت لسلطان المسلمين بل ان تاريخ وجودهم سابق لتاريخ وجود المدجنين ذلك ان التدجين لم يظهر بأبعاد الحقيقية وصورته المتكاملة الا بعد سقوط طليطلة وما تلاها من الحواضر الاسلامية في يد النصارى (٢٦) في حين ظهرت مسألة اهل الذمة – والذين عرفوا فيما بعد بالمتعربين (*****) – في شبه الجزيرة بعد عمليات الفتح واستقرار سلطان المسلمين . اذ كان لاولئك السكان حقوق حفظتها لهم المعاهدات والمواثيق الموقعة بينهم وبين العرب والتي نظمت اسسها ومبادئها الشريعة الاسلامية والقوانيين والاعراف التي طبقت في مناطق مختلفة من اراضي الدولة الاسلامية (٢٧) وكمثال على ذلك يمكننا تتبع البنود الواردة في العهد الذي وقعه المسلمون مع حاكم مدينة (تدُمير) التي فتحت صلحاً حيث منح اهلها الامان مقابل دفعهم الجزية (٢٨) .

على الرغم من هذا التعايش القديم بين المسلمين والنصارى في الاندلس وفي غيرها من ارض الاسلام فاننا نرى ان نظرة خاصة كان ينظر بها الى اولئك المسلمين المقيمين تحت حكم النصارى في الاندلس لم يحظ هؤلاء بنظرة عطف من مواضيهم بل على العكس من ذلك نجدهم ينعتونهم بنعوت قاسية ويرون في اقامتهم بين النصارى اهانة للاسلام والمسلمين (٢٩) هذا ما يفسر لنا قلة المعلومات المتوفرة عن المدجنين في المصادر العربية المعاصرة اذ كانوا موضع تجاهل من المؤرخين المسلمين " ومن السهل ان نقرأ بين السطور عن باحث ومؤرخ من وزن ابن خلدون فنلمس ما يكنه من ازدراء لابناء دينه اذ يقابلهم في اشبيلية في عهد بطرس القاسي ومن الغريب ان يذكر ابن خلدون المدجنين مجرد ذكر لانهم عند اغلب الكتاب المسلمين شذوذ عن القاعدة يبعث على الحرج ويحسن السكوت عليه .... " (٣٠) .

وحتى من الناحية الشرعية نرى ان احد الفقهاء – والذي يمثل الرأي الاكثر تطرفاً يؤكد ان استمرار المسلمين بالاقامة بين النصارى يعد مروقاً ومعصية كبيرة وهو

يعرض لاراء عدد من الفقهاء الذين يؤكدون ذلك دون ان يراعي في فتواه ان طوائف كبيرة من اولئك المسلمين وفي فترات مختلفة قد تمتعوا بنوع من الحرية في ظل حكام النصارى وان التنصير القسري لم يبدأ الا في فترة متأخرة على الرغم من ان السلطات الاسبانية قد أنتهجت سياسة كان هدفها تجريد المسلمين من دينهم ولغتهم بصورة تدريجية (٣١) . على اية حال فلم يكن بأمكان المدجنين الهجرة دائماً بسهولة الا في بعض الاوقات التي كان يسود فيها السلام بين المسلمين والنصارى وفقاً لبعض العاهدات (٣٢) (******) . لكن فترات الهدوء والسلم بين اسبانيا المسلمة واسبانيا النصرانية كانت نادرة اذ كانت حالة الحرب المعلنة وغير المعلنة هي الطابع السائد بين الطرفين . ولذلك فان من الملاحظ ان الهجرة السرية للمسلمين افراداً وجماعات كانت مستمرة الا ان هذا كان يتطلب اموالاً كثيرة ومخاطرة كبيرة ذلك ان من يقع في يد السلطات يتعرض للعقوبة الشديدة (٣٣) .

المبحث الثاني

الوثائق واهميتها : -

تعد الوثائق موضوع البحث مصدراً مهماً لدراسة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للمدجنين في مملكة اراغون وفي مدينة وشقة بالذات في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين / الرابع والخامس الهجريين . اذ تحوي الوثائق معلومات غنية لجوانب متعددة للحياة اليومية للسكان المسلمين الذين عاشوا في المدينة بعد سقوطها ، وان استنطاق هذه الوثائق يضعنا امام مجموعة من الحقائق التي تتعلق بالسياسة التي انتهجتها الحكومات النصرانية في اسبانيا تجاه المسلمين الموجودين في اراضيها فيما يخص النظام الضرائبي وقوانين البيع والشراء للعقارات من اراضي زراعية وغيرها والعملة المتداولة بين السكان في ذلك الوقت ، كذلك تعرض الوثائق لبعض الهيئات الاجتماعية التي كانت موجودة في المجتمع المدجني التركيب السكاني للمنطقة والطبقات الاجتماعية الموجودة ، فضلاً عن وعلاقتها بالسلطة السياسية وبالمجتمع المسيحي ، للوثائق اهمية كبيرة في معرفة اهميتها اللغوية والقانونية والشرعية . وهي بذلك تعد ثروة كبيرة لا يستغنى عنها في مثل هذا النوع من الدراسات .

ان الاعتماد على الوثائق وحدها لا يكفي للاحاطة بكل جوانب الموضوع ومن اجل ذلك فقد اعتمدت الدراسة على مجموعة من المصادر الجغرافية والتأريخية لمدينة وشقة ابان عصرها الاسلامي او بعد سقوطها بقليل اذ لا يوجد في المصادر العربية شيئاً يذكر عن اخبارها تحت حكم النصارى . كما تم الاعتماد على مجموعة من المراجع الحديثة من بحوث ودراسات تناولت موضوع المدجنين من مختلف الجوانب بكثير من التفصيل .

ويبلغ عدد الوثائق اثنا عشر وثيقة يعود تاريخ اقدمها الى جمادى الثانية من (٥٤٠ هـ) الموافق لـ (نوفمبر من عام ١١٤٥ م) اما احدثها فيعود تاريخها الى (جمادي الثانية ٦٦٧ هـ) الموافق لـ (١٢٦٩) (*******) ويورد الناشر تصنيفاً للوثائق مع مجموعة من الخصائص الكتابية والخطية لها اذ يذكر ان كل الوثائق مكتوبة على ورق البرشمان على وجه واحد وبالخط المغربي والحبر اسود او بني وكل الوثائق مؤرخة بالتاريخ الهجري وبعضها يحمل مقابله بالتاريخ الميلادي وقد صنفت حسب موضوعاتها الى : بيوع ، اقرار بدين ، مبادلة . فهي بذلك كما يظهر من تصنيفها تركز على جوانب مهمة من الحياة الاقتصادية ولكنها ايضاً لا تغفل الجانب الاجتماعي الذي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالحياة الاقتصادية (٣٤) .

الملاحظات القانونية والتشريعية حول الوثائق : -

ان جميع الوثائق تبدأ بالبسملة ويشار فيها الى التأريخان الميلادي والهجري جنباً الى جنب وتظهر فيها اسماء جميع المتعاقدين ووكلائهم الذين ينوبون عنهم في عمليات البيع والشراء ، والشهود على تلك المعاملات كما ويتضمن العقد تحديد لمهنة البائع والمشتري وتحديد لموقع الدار او الارض المراد بيعها او شراؤها او مبادلتها بشكل دقيق جداً . في عقود الاقرار بالدين فاننا نرى ان معظم المستدينين يكون لهم ضامن او اكثر يتحملون ما يتحمله المستدين في حالة عدم وجوده وتسديده للدين اذ ترد عبارة ((رب الحق مخير في اخذ من شاء منهم (أي الضامنين) حاضرهم بغائبهم ...)) وكذلك في عمليات معاوضة الاراضي الزراعية فان هناك ضامن لكلا الطرفين ويحق لمن يحمل العقد في حالة الدين او البيع ان يقبض المال نيابة عن المالك فهو مخول للقيام بذلك .

وتظهر احدى الوثائق نوع من انواع تسديد الدين يكون على دفعتين من ثمن الغلة وهذا يعني ان الفلاحين المدجنون كانوا يسددون ديونهم من بيع المحاصيل الزراعية اذ لم يكن لهم مصدر اخر .

يلاحظ في جميع الوثائق ورود عبارة ((حل ذي الملك في ملكه وعلى بيع الاسلام وشرطه ومرجع الدرك فيه بين اهله ...)) (*********) وهي توضح بجلاء المعاملات التي كانت تتم بين المسلمين (المدجنين) وغيرهم من المسيحيين او اليهود ايضاً في تلك الفترة التي كانت تتم وفقاً لتعاليم الشريعة الاسلامية والتقاليد والاعراف الاندلسية . وهذا يؤكد المعلومات التي تذكرها المصادر من ان المسلمين في مملكة اراغون قد احتفظوا لفترة من الزمن بالكثير من حرياتهم الدينية والمدنية واشكال معاملاتهم الاقتصادية والتجارية (٣٥) .

ومن تكرار بعض الصيغ في الوثائق يلاحظ ان اصحاب العقارات المباعة كانوا يمنحون للمشترين او وكلائهم براءات معينة عند قبض اثمان تلك العقارات يؤكد فيها البائع استلام الثمن وان العقار وجميع ما يلحق به اصبح من حق المشتري وترد الصيغة بهذا الشكل " بيعت ارض بثمن عدته ستين ديناراً [كذا] قناشر فضة من السكة الجارية الان نقدها المبتاع المذكور طيبة جياداً وقبضتها البائعة المذكورة وابراته عن ذلك ابراءِ صحيحاً فبرئ ... " . نلاحظ من بين العبارات المتكررة ايضاً عبارة " بجميع منافعهما وحرمهما وحقوقهما ... " وهي عبارة تلحق بما قبلها من تحديد دقيق لموقع الارض المباعة هذا يبين لنا حرص التشريع على تحديد موقع الارض وتوابعها والتأكيد على ذلك في صلب العقد تجنباً لاي نوع من المشاكل التي قد تنشأ بين المتعاقدين مستقبلاً .

ويمكن ايضاً ان نستشف بعض التشريعات التي تخص المرأة في مجتمع المدجنين اذ تمتعت بنوع من الحرية والاستقلالية الاقتصادية بما اقرته لها الشريعة الاسلامية التي كان معمولاً بها حتى ذلك الوقت اذ كان لها املاكها الخاصة بالذات ما يتعلق بالاملاك العقارية كالدور او الجنان والبساتين ومن الطبيعي ان النساء كُن يوكلن من ينوب عنهن في ادارة تلك الاملاك او بيعها او شرائها . وتظهر الوثائق عمليات بيع لاملاك بعض النساء تمت بواسطة وكلائهن كاقربائهن او ازواجهن وتورد الوثائق اسماء خمسة نساء كن اطراف في عمليات بيع وشراء ومعاوضة لاراضي زراعية في مدينة

وشقة . وتظهر الوثيقة رقم (٨) التي يعود تاريخها الى عام (١٢١٥ م / ٦١٢ هـ) ان بيع دار (نعيمتي) تم بموافقة زوجها (احمد بن ابراهيم المريني) وتنفيذه بالنيابة عنها قد لا يعني ذلك ان بيع املاك المرأة او التصرف بها كان مرهوناً بموافقة الزوج ففي وثيقة اخرى يعود تاريخها الى عام (١١٥٥ م / ٥٤٩ هـ) ان موافقة الزوج لم تكن مطلوبة – على الرغم من عدم تأكدنا من وجوده – على الاقل في حالات معينة .

تشير الوثائق الى نوع من انواع المعاوضة التي تتم بالنسبة للاراضي الزراعية بأن يتبادل الطرفان بنفس المساحة من الارض الا ان المدجنون يدفعون مبلغاً سنوياً هو بمثابة ضريبة " يؤديان عنه خمسة دنانير قناشير على وجه الطبل (*********) دائماً مستمراً الى ان يرث الله الارض ومن عليها وهو خير الوارثين ... " ولا يحق للمدجن من المتعاوضين بيع ما تحت يده من الارض دون ابلاغ الطرف الاخر واذ شاء شراء ما تحت يده من الارض فانه يشتريه بأقل من ثمنه كما تشير الوثيقة الى ذلك .

وفي وثيقة اخرى نرى ان (المدجن) يدفع عن الارض التي تؤول اليه بالتعاوض جميع انواع الضرائب المفروضة على الفلاحين المسلمين كالعشر وضريبة اخر تعرف بـ (البرميسية) كما ورد ذلك في وثيقة رقم (٥) .

ان مجموعة العناصر القانونية والتشريعية الواردة في الوثائق في دقتها وتفصيلاتها توضح لنا الحرص الكامل على حفظ حقوق المتعاقدين من المسلمين وغير المسلمين في الكثير من الجوانب – وربما كان السبب في ذلك ان بعضها قد استوحى من روح التشريع الاسلامي كما هو واضح من الوثائق – وهي تعطي فكرة واضحة عن مدى التطور الذي كانت عليه المؤسسات القضائية والتشريعية التي كانت معروفة منذ العصر الاسلامي .

المبحث الثالث

(١) خطط مدينة وشقة من خلال الوثائق : –

تظهر الوثائق بعض الملامح عن التخطيط العمراني لمدينة وشقة بعد سقوطها في يد الاسبان على الرغم من ان اكثر المواضع التي ورد ذكرها تشير الى الارباض وهي ضواحي المدينة والمناطق الريفية ، ويمكن تكوين صورة واضحة عن المدينة من

خلال الاعتماد على المعلومات الواردة في بعض المراجع الى جانب الوثائق المعتمدة . ان المواضع او المواقع التي اشارت اليها الوثائق (كما اسلفنا) هي في اغلبها مناطق ريفية – اذ ان الوثائق هي عقود بيع وشراء ومعاوضة لاراضي زراعية –كربض الغربي ، حومة المريج ، حومة مرلون ، ربض المقيبرة ، حومة المائدة ، مرج غليانق ، حوز العسكر . ان جميع هذه المصطلحات كانت متداولة في الاندلس ابان العصر الاسلامي ولها دلالاتها المعروفة فالربض يعني المنطقة التابعة للبلد او ظواهره او ضواحيه الواقعة خارج الاسوار وقد يكون للمدينة اكثر من ربض ، والحومة تأتي بمعنى الحي من احياء المدينة ، اما مصطلح حوز فنعني به حدود المدينة ونواحيها ، وبالنسبة لتعبير المرج فانه يعني الارض الواسعة كثيرة الزرع والانهار تمرج فيها الدواب والجمع مروج [٣٦] .

كذلك تظهر الوثائق اسماء لعدد من القرى التابعة لمدينة وشقة مثل قرية بنرياش وكذلك اسماء لكثير من البساتين والضياع والتي غالباً ما كانت تعرف باسماء اصحابها حيث يشار اليها باللهجة الاندلسية بـ (منية) وجمعها (مُنى) وهي البساتين الواسعة التي تضم قصوراً ريفية فخمة يسكنها اعيان المدينة واغنياؤها . ومن هذه المنى –كما جاءت اسماءها في الوثائق – جنان بن سامرة ، جنان عبد الرحمن بن طربياله ، جنان لورثة دون بطرة كسناره ... ، المنية المنسوبة الى الصباغ والى الابيتر ، ارض مرتين النصراني من المنيان ... وغيرها من المنى والجنان التي ورد ذكرها في الوثائق . وقد انتشرت مثل هذه البساتين في كثير من المدن الاندلسية وليس في وشقة وحدها اذ تحدث عنها كثير من المؤرخين ومنهم شاعر غرناطة واديبها ابن الخطيب حيث كانت تضفي على مدينته جواً من البهجة والسحر . وهو يقول ان الاندلسيين كان بهم كلف لامتلاك مثل تلك الجنان او البساتين ويظهر لنا نص ابن الخطيب ان هذه التعابير (منية ، جنة) ظلت متداولة بين الاندلسيين – اذ كانت وفاته عام (٧٧٦ هـ = ١٣٧٤ م) وحتى بعد سقوط غرناطة في (٨٩٧ هـ = ١٤٩٢ م) ولفترة طويلة ، على اية حال، فقد كان من الطبيعي ان تقع البساتين حول المدينة او في ارباضها او ضواحيها وهي بذلك تكون بمثابة السور الذي يحيط بسورها المبني من الحجر والطوابي [٣٧] .

تشير الوثائق ايضاً الى وجود الشوارع الضيقة التي كانت تعرف باللهجة الاندلسية بـ (زنقة) وايضاً طريق والذي يعبر عنه (بطريق العامة) ويبدو انه يشير الى شارع اوسع من (الزنقة) .

قد تختلف هذه المصطلحات مكانياً وزمانياً في بلاد الاندلس . حيث يشير احد الباحثين الى استخدامها في غرناطة بني نصر مثلاً : بأن الشارع الذي يحمل اسماً هو (الزنقة) والذي لا يحمل اسماً هو (طريق) لكن الشارع الرئيسي في الحي هو (ممر) دائماً (والزقاق) شارع فرعي صغير (الرصيف) هو الطريق المرصوف [٣٨] كما ان هناك اسماء لبعض المناطق قد تكون – على الارجح – ضمن مركز مدينة وشقة وليس في ضواحيها فقد ذكرت في العقود لتبين انتساب اصحابها المشترين والبائعين لمناطقهم وهي منطقة : ارطشياله ، اللبار ، شراس ، وغيرها .

ويرد بين الوثائق ذكر لمقبرة يمكن تحديد موقعها من خلال ما ورد في الوثيقة التي ذكرت فيها انها تقع في (ربض المقيبرة) احد ارباض مدينة وشقة . وربما لا تكون هي المقبرة الوحيدة للمدينة فقد يكون في المدينة الواحدة اكثر من مقبرة كما هي الحال بالنسبة لكثير من المدن الاندلسية كمدينة بلنسية [٣٩] ومدينة غرناطة التي كان لها سبع مقابر بعضها كان يقع داخل السور والبعض الاخر خارجه [٤٠] ان المعلومات المتوفرة لا تصرح ما اذا كانت المقبرة مقبرة اسلامية ذلك ان النصارى الذين نزحوا للمدينة بعد سقوطها كان استقرارهم في مركز المدينة وليس في الارباض والضواحي وقد دفعوا بالمسلمين الى ضواحي المدن فمن الطبيعي ان تكون مقابرهم (أي النصارى) داخل الاسوار وليس خارجها وبهذا فاما ان تكون هذه المقبرة مقبرة قديمة للسكان المسلمين المتواجدين اصلا في الربض او انها استحدثت بعد تزايد عدد المسلمين في الارباض بعد نزوحهم من المدينة [٤١] .

لم يرد في الوثائق المذكورة أي اشارة الى اسوار مدينة وشقة ولا حتى عندما اشارت الى بعض المناطق التي قد تكون قريبة من الاسوار لكن يجب ان نتحدث عن تلك الاسوار لاعطاء صورة شاملة عن تخطيط المدينة . ان الملامح البارزة في تخطيط المدن الاندلسية والاسلامية عموماً هو وجود الاسوار التي تحيط بالمدينة ويكون لها عدة ابواب فهدف انشائها هو حماية المدن والدفاع عنها وقت الحروب وتيسير جميع وسائل الراحة

والعيش للسكان في حالة الحصار داخل الاسوار [٤٢] لقد تحدث الحميري عن اسوار وشقة في عصرها الاسلامي اذ قال : " بأنها مدينة حصينة في الاندلس لها سوران من حجر الطوابي ... " [٤٣] . ويبدو ان المدينة قد توسعت بمرور الوقت وازداد عدد سكانها منذ عصرها الاسلامي اذ من المرجح ان يكون السور الثاني – الذي ذكره الحميري – قد بني حول الارباض والضواحي التي استحدثت خارج السور الاول والذي كان يحيط بالمدينة القديمة وان تلك الارباض اصبحت احياء تقع داخل السور الثاني – ولا تختلف وشقة عن غيرها من المدن الاندلسية التي سقطت في يد النصارى والتي احتفظت بالكثير من معالمها بل حتى بالكثير من اسماء احيائها وارباضها كمدينة بلنسية التي كان من اشهر ابوابها (باب الحنش ، وباب القنطرة) حتى بعد سقوطها بيد النصارى [٤٤] .

وتؤكد الوثائق موضوع البحث ان الكثير من خطط المدينة القديمة في وشقة بقيت على حالها ولا بد ان تكون الاسوار والابواب هي الاخرى لم تتغير كثيراً ومن جانب اخر فأن الوثائق لا تذكر شيئاً عن المرافق المهمة التي يجب ان تكون موجودة في وشقة كما في كل المدن الاندلسية والاسلامية عموماً كالمساجد والحمامات والاسواق والفنادق التي تُكون هيكل المدن الاسلامية المتحضرة في ذلك الوقت . ان بعض المصادر الاسلامية التي تحدثت عن وشقة قبل سقوطها اكدت انها كانت مدينة عامرة " بها ازيد من ستين مسجداً وهي على نهر يشق مدينتها ويجري في حمامين من حماماتها ... " [٤٥] .

لم تكن القرارات التي اتخذتها السلطات السياسية في مملكة اراغون تقضي بالتخلص فوراً من كل معالم المدن الاسلامية بل على العكس من ذلك كان هناك صيغ من اتفاقات ضمنت للمسلمين احتفاظهم بمساجدهم وحماماتهم العامة وعاداتهم وتقاليدهم خاصة في عصر التسامح فبعد سقوط أي مدينة كان يتم تحويل عدد من المساجد الى كنائس بخاصة المسجد الجامع للمدينة لكن كان يحق للمسلمين الاحتفاظ بعدد قليل منها لاقامة صلواتهم [٤٦] .

ومثلما احتفظت المدن ببعض المساجد فأنها احتفظت ايضاً بعدد من الحمامات العامة لكن الامر بالنسبة للحمامات كان يختلف كثيراً اذ لم يكن استعمالها مقتصراً على المسلمين وحدهم بل كانت الحمامات مظهراً من المظاهر الاجتماعية التي تركها الاسلام في المجتمع الاندلسي . يرتادها المسلمون والنصارى واليهود على حد سواء [٤٧] ولا

يعني عدم ورود ذكر المساجد والحمامات والفنادق والاسواق في الوثائق انها لم تكن موجودة في خطط مدينة وشقة او ان قسماً منها بخاصة المساجد والحمامات قد دمرت على يد النصارى ويمكن عزو عدم ذكرها الى ان الوثائق تحدثت عن بساتين وضياع ولم تتحدث عن مركز المدينة وما حولها بما يضمه من مؤسسات ومرافق مهمة .

(٢) الحياة الاجتماعية : -

التركيب السكاني : -

تظهر الوثائق بشكل واضح التركيب السكاني للمجتمع في وشقة . ويبدو وقد تعددت فيه العناصر والاديان كما هو معروف منذ العصر الاسلامي ، فهناك المسلمون الذين اصبحوا يعرفون منذ سقوط مدينتهم بـ (المدجنين) وهم الذين ينتمون الى اصول مختلفة من عرب ، وبربر ، ومولدين يبدو ذلك واضحاً من خلال الاسماء التي ترد في تلك الوثائق فالعرب هم من اسر عربية مختلفة يمكن تمييزها بما يلي : كالتجيبي ، والاموي ، والنحوي ، والصدفي ، واسماء اخرى تدل على الاصل القبلي : كالرعيني ، المرادي ، والزهري ، والانصاري . ويمكن ان نتبين ان الاسر العربية العريقة والمعروفة في منطقة الثغر الاعلى بصورة خاصة قد بقيت في تلك الانحاء حتى بعد سقوط المدينة في يد المسيحيين وان الكثير من ابنائها لم يهاجروا بل بقوا الى فترة متأخرة بعد سقوطها . فقد سقطت وشقة في يد الاسبان عام (٤٨٩ هـ = ١٠٩٦ م) في حين تظهر لنا احدث الوثائق وهي التي تعود عام (١٢٩٦ م = ٦٦٧ هـ) وجود عدد من التجيبيين والامويين في مدينة وشقة . ويظهر ان هذه الاسر وعلى الرغم من فقدناها لمكانتها السياسية التي تمتعت بها في العصر الاسلامي (**********) فانها بقيت تحتفظ بمكانة اجتماعية واقتصادية مرموقة في مجتمع المدجنين . اذ تبين الوثائق تكرار عدد من اسماء اشخاص او اقرباء لهم في عقود البيع والشراء والمبادلة وغيرها كشهود على تلك العقود وفي سنوات متفاوتة اذ يرد اسم لشخص من التجيبيين هو محمد بن خلف بن فرج التجيبي بين اعوام (٥٤٠ هـ = ١١٤٥ م) وعام (٥٤٨ هـ = ١١٥٤ م) وعام (٥٤٩ هـ = ١١٥٥ م) . كما يرد اسم ابنه ابراهيم بن محمد بن خلف التجيبي (٥٧٢ هـ = ١١٧٧ م) . وحفيده خلف بن ابراهيم بن خلف التجيبي عام (٥٩٨ هـ =

١٢٠٢ م) و (٥٩٩ هـ = ١٢٠٣ م) وهناك شخص اخر من التجيبيين هو عبد الله بن محمد بن عبد الملك التجيبي يرد اسمه في عقدين يعود احدهما الى عام (٦٢٧ هـ = ١٢٣٠ م) والاخر الى عام (٦٣٥هـ = ١٢٣٨م) ان وجود هذه الاسماء وتكرارها يدل على ان ابناء هذه الاسر التي حكمت منطقة الثغر الاعلى كان لهم مكانة اجتماعية كبيرة وحضور واضح في المجتمع (المدجن) بل ربما يكون بعض ابنائها قد شغل منصب (العمدة) في المناطق التي كانت تضم اغلبية من المدجنيين اذ ان تلك المجتمعات المسلمة في المناطق التي خضعت للمالك المسيحية قد اتخذت كما هو معروف اشكال من التنظيم الاجتماعي كانت تسهل وتنظم علاقتها مع السلطة السياسية الحاكمة في البلاد .

وتعرض الوثائق ايضاً اسماء عدد من المسلمين البربر الذين ينتمون الى قبائل بربرية مختلفة كـ (المريني والزاوي والريطي) كما يشار الى بعض الاسماء (بالمغربي ، ابن سكنات ، القلهوري ، ابن حمتول ، ابن ملون) مما يشير الى اصلها البربري من المعروف ان البربر شكلوا العنصر المسلم الثاني ضمن الجيش الاسلامي الداخل الى الاندلس بل انهم كانوا الاكثرية بين الجيش الفاتح الذي دخل مع طارق بن زياد الى الاندلس (٤٨) .

وكان لهم اهميتهم الواضحة في الاحداث السياسية سواءاً في عصر الامارة او الخلافة وفيما بعد عصر الطوائف بعد انتثار عقد الخلافة الاموية واستقلال الامراء المتغلبين بمدنهم فقد حكمت اسر عديدة من البربر بعض دويلات الطوائف كبني ذنون في طليطلة وبني الافطس في بطليوس وبني زيري في غرناطة (٤٩) . وبعد نهاية عصر الطوائف وسقوط تلك الدويلات على يد المرابطين فان البربر كانوا هم الطبقة الحاكمة التي حكمت امبراطورية واسعة امتدت من المغرب الى الاندلس كانت فيها الاندلس ولاية من ولاياتها وقد استمر ذلك حتى مجيء الموحدين الذين ورثوا تراث المرابطين في المغرب والاندلس وكانوا ايضا من قبائل البربر وتحديداً (قبائل المصامدة) الذين كانوا يعيشون على جبال الاطلس في جنوب المغرب (٥٠) . من ذلك يمكن معرفة الى أي مدى كان لذلك العنصر اهميته وتأثيره في المجتمع الاندلسي ، ولذلك لا يمكن ان يغيب عن

مسرح الاحداث بعد سقوط المدن الاسلامية بيد النصارى بحكم وجوده العميق تاريخياً وجغرافياً .

كما تظهر الوثائق عنصراً اخر من العناصر المسلمة ونقصد بهم المولدين وهم الذين اختلطت فيهم الدماء العربية والبربرية والاسبانية بحكم التزاوج او المصاهرة بين سكان البلاد الاصليين الذين اعتنقوا الاسلام واصبحوا يشكلون جزءاً مهماً من ذلك المجتمع . ويورد الحميري نصاً يمكن ان يعطينا تصوراً واضحاً عن التركيبة السكانية لمدينة وشقة ابان عصرها الاسلامي خاصة فيما يتعلق بالمولدين يقول : " ليس بوشقة من اهلها المتأصلين رجل ينتهي الى اصل من العرب ... " هذا يؤكد ان المسلمين في هذه المدنية كان اغلبهم من المولدين (٥١) . لقد كان لكثير من الاسر المولدة اثارها الواضحة في التاريخ السياسي في الاندلس ، كبني قسي وبني موسى بن فرتون في منطقة الثغر الاعلى – التي عرفت بغلبة العنصر المولد فيها – بخاصة في عصر الامارة والخلافة (٥٢) .

على اننا يجب ان نكون حذرين في تصنيفنا للاسماء التي وردت في الوثائق والتي تدل على اصل مولد – وهي تبدو اسماء اعجمية معربة – لان السكان الاصليين من اليهود والنصارى كانوا قد استعربوا منذ الفتح وتبنوا جميع العادات والتقاليد العربية وتسموا باسماء عربية ولبسوا الازياء الاسلامية فأصبحوا لا يختلفون كثيراً عن مواطنيهم من المسلمين حتى اشتهر منهم الكثير من الشعراء والادباء والعلماء لكنهم احتفظوا بدينهم اليهودي او النصراني واصولهم الاسبانية (٥٣) على هذا الاساس فاننا لا يمكن ان نميز بين المولدين والمستعمرين (٥٤) ما لم تشر الوثائق صراحة الى الديانة التي يعتنقها الشخص الوارد اسمه في أي من تلك الوثائق ومن هذه الاسماء : عبد الرحمن طربيالـه ، يوسف المترولة ، مفرج بن مسعود قرقنالش ، عبد الله بن مسعود بن ثرثال الانصاري .

في مقابل ما ذكر فان بعض الوثائق تشير صراحة الى وجود يهود مستعربين بين عناصر السكان ومن المعروف ان اليهود كانوا يشكلون اقلية كبيرة في اسبانيا قبل الفتح (٥٥) ثم استمر وجودهم بعد ذلك وقد منحتهم الحكومات العربية حرية دينية ومدنية كبيرة اذ تسنم الكثير منهم مناصب عليا في الدولة كما كان لهم حق التعبير عن ارائهم واقامة شعائرهم وممارسة عاداتهم وتقاليدهم واحياء لغتهم (**********) شأنهم في ذلك

شان غيرهم من اهل الذمة الذين عاشوا في ظل دولة الاسلام في الاندلس . وبعد ان سقطت الكثير من الحواضر الاسلامية في يد الاسبان فان اليهود بقوا يشكلون عنصراً مهماً ضمن التركيبة السكانية للشعب الاندلسي [٥٦] .

وترد اسماؤهم في الوثائق كما يلي : ارباب الدولة ابو الحسن شلمون بن ارذوط ، ابو اسحق بن لطرنير الاسرائيليين الناظرين في حقوق السلطان ايده الله ، ولبيطة بن ابي ربيع الملقب (بُوقُة دِقوارنة الاسرائيلي) . يتبين لنا من خلال عبارات التبجيل التي تسبغها الوثائق على أولئك اليهود انهم كانوا من الشخصيات التي لها ارتباط بالسلطة السياسية في مملكة اراغون وان ابو الحسن بن شلمون واسحق بن لطرنير (الناظرين في حقوق السلطان) هم وكلاء او نواب عن الحكومة الاسبانية في ادارة بعض الاملاك التابعة للدولة او جمع الضرائب التي كانت تفرض على الرعايا من المسلمين وغيرهم .

ان الوثائق تؤكد المعلومات الموجودة عن اعتماد الملوك الاسبان ومنذ وقت مبكر من سقوط المدن الاندلسية على اليهود في كثير من المناصب المالية والادارية في ممالكهم لما كان يتمتع به هؤلاء من خبرة كبيرة في مثل تلك الامور لكن هذا لا يمنع من ان اليهود قد اضطهدوا من قبل السلطة السياسية وبتحريض من الكنيسة التي كانت تنظر اليهم نظرتها الى المسلمين باعتبارهم هراطقة يجب ملاحقتهم وتجريدهم من اموالهم ومناصبهم ويبدو ذلك بشكل اوضح مع احتدام الصراع الديني بين المسلمين والنصارى في اسبانيا وسقوط المزيد من الحواضر الاسلامية بيد النصارى ويمكن لمس ذلك بوضوح في القرارات التي صدرت بحق اليهود ومنها ما اصدره الملك دون بيدرو الثالث في بلنسية عام (٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م) حرم فيها على المسلمين واليهود الدخول في وظائف القضاء والشرطة والمالية [٥٧] ان صدور مثل هذا القرار يعني ان المسلمين واليهود شاركوا ايضاً في وظائف عسكرية كالشرطة . بالاضافة لوجودهم في البلاطات الملكية .

اما العنصر الاخر ضمن التركيبة السكانية في اسبانيا حسب الوثائق فهم النصارى المستعربون وهم المتواجدين في مدينة وشقة قبل ان يستولي عليها الاسبان أي انهم كانوا ضمن رعايا الدولة الاسلامية وعاشوا مع السكان المسلمين وقد استعرب هؤلاء بمرور الزمن (كما ذكر سابقاً) . اما الفئة الثانية منهم فهم النصارى النازحون من الشمال عقب عمليات سقوط المدن الاسلامية بيد الملوك النصارى [٥٨] .

الطبقات الاجتماعية : -

تظهر الوثائق طبقات المجتمع في مدينة وشقة ويمكن من خلالها معرفة ان المسلمين (المدجنين) كانوا يشكلون نسبة لا بأس بها من السكان واغلبهم ينتمون الى الطبقة العامة ويمارسون بعض المهن او الحرف التي عادة ما يمارسها هؤلاء كالفلاحة اما في الاراضي التي يملكونها او في اراضي النبلاء الاسبان كذلك تظهر الوثائق بعض الحرف التي كانت تمارس من قبل المدجنين مثل التجارة ، وصناعة الاحذية التي يطلق على صاحبها (اسكافي او قراق) ، والحجامة ، وغيرها من المهن التي لم تذكرها الوثائق فمن المعروف ان المدجنين كانوا الاكثر خبرة في الاعمال اليدوية والبناء وقد استعان بهم النصارى بالدرجة الاساس في مثل هذه الاعمال (٥٩) .

اما الطبقة الاخرى التي تظهر من خلال الوثائق فهي الطبقة الارستقراطية كالنبلاء الاسبان ورجال الدين المسيحيون اذ تسبغ عليهم الوثائق القاباً مختلفة تتناسب ومكانتهم الاجتماعية او الدينية فهناك من رجال الدين ممن قاموا بشراء الكثير من الاراضي نيابة عن الكنائس والاديرة منهم : غلند بليطة الشقرشطانه وتعني (الخادم او السادن في الكنيسة) والاسقف دون استابن الذي اناب في احدى عمليات البيع عن الاكذياكنه – وهو على الارجح دير –دون برناض من وشقة وهو ايضاً صاحب المفاتيح والكنبانية وتعني (دير) من كنيسة (شنت مرية) . ودون غليام ارسذياقني ويعني (رئيس شمامسة) الذي قام بشراء ارض بحومة مرلون في وشقة من احد المدجنين الساكنين في المنطقة . وفضلاً عن رجال الدين الاسبان هناك اشخاص ممن تمتعوا بمكانة اجتماعية واقتصادية مرموقة في المجتمع الاسباني يمكن ان يكونوا من النبلاء واغلب هؤلاء من ملاك الاراضي او ممن كانوا الطرف المشتري في عمليات بيع الاراضي الزراعية او ممن قاموا باقراض اموال لاشخاص من المدجنين هم على الارجح من الفلاحين من بين اولئك النبلاء المسيحيين كما وردت اسماؤهم في الوثائق : (دون مرتين واخيه دون يوان ابنا دون غارسيه) المعروف من سراش ، ودونه يوانه بنت بطرة طورش من سرقطة النصرانية ، دون بطرة ولد دون باطرة الاحمر ودون بار ارنالدد لبرطة وزوجته مرتينه النصرانيين من وشقة وغيرهم كثير ممن وردت اسماؤهم في الوثائق .

الاهمية اللغوية للوثائق : -

ان للوثائق اهمية كبيرة من الناحية اللغوية فهي مكتوبة بلغة عربية واضحة يتبين من خلالها ان المدجنين في المناطق التابعة لمملكة اراغون كانوا يتكلمون اللغة العربية ويكتبون معاملاتهم الرسمية باللغة العربية اذ لم يكن سقوط المدن الاسلامية في يد المسيحيين ليقضي بصورة نهائية وحاسمة على لغتهم التي عاشت بين السكان لقرون طويلة . دخلت العربية الى اسبانيا بدخول الفاتحين اليها وتعلمها السكان الاصليون كما نقلوا لغتهم الى المسلمين من الفاتحين اليها وتعلمها للسكان الاصليون كما نقلوا لغتهم الى المسلمين من عرب وبربر . هكذا صاغت ظاهرة التأثير المتبادل بين السكان في الاندلس ما عرف بين الباحثين بـ (ثنائية اللغة) في اسبانيا في القرون الوسطى . كان اول من اشار الى هذه الحقيقة هو الاب اليسوعي (خوان اندريس) في القرن الثامن عشر ولقد اثبتها البحث العلمي فيما بعد وكانت نظريته تؤكد على استعمال الناس في الاندلس للغتين دارجتين احدهما عربية والاخرى عجمية اسبانية ، ليس هذا فحسب بل انه ذهب الى ابعد من ذلك اذ اكد على ان اسبانيا نقلت الى غيرها من الدول الاوربية المجاورة هذا التأثير فالشعر الاسباني الذي نشأ – في اول امره – تقليداً لشعر العرب في صوره وقوالبه قد انتقل الى بروفنسا عن طريق الصلات المتبادلة بين الفرنسيين والاسبان – نصارى ومسلمين – فنشأ الشعر البروفنسي على اساس من الشعر العربي والذي دار على السن الشعراء الجوالين الذين عرفوا بـ (التروبادور) . ان قواعد التقفية في الشعر الشعبي الاسباني او الفرنسي واساليب صياغة الشعر الحديث ونظمه انما هي ماخوذه عن العرب ويصدق ذلك على الشعر البروفنسي الذي أثر بدوره على الشعر الايطالي ايضاً وهو بذلك انما ينتسب الى الشعر العربي اكثر مما ينتسب الى شعر اليونان واللاتين [٦٠] .

هكذا ومن خلال ما تقدم يمكن تصور الى أي مدى تغلغلت اللغة العربية بين السكان المحليين بل انها كانت لغة الادب والشعر والعلوم والثقافة بصورة عامة بالنسبة لهم حتى ان بعض رجال الدين النصارى كانوا يعيبون على الكثير من ابناء دينهم اتقانهم وحبهم للعربية ليس ادل على ذلك من عبارات الاب البيرتو القرطبي التي يقول فيها " ان اخواتي في الدين يجدون لذة كبرى في قراءة شعر العرب وحكاياتهم ويقبلون على دراسة مذاهب الدين والفلاسفة المسلمين لا ليردوا عليها وينقضوها وانما لكي يكتسبوا من ذلك

اسلوباً عربياً جميلاً . واين تجد الان واحداً من غير رجال الدين يقرأ الشروح اللاتينية التي كتبت على الاناجيل المقدسة : يا للحسرة ان الموهوبين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم الا لغة العرب وادابها ... " (٦١) .

في مقابل ذلك فقد انتشرت اللغة الاسبانية الدارجة بين السكان المسلمين من عرب وبربر والتي عرفت بلغة الرومانس او الاسبانية المحكية او لاتينية اهل الاندلس حيث تؤكد المصادر انها كانت ذائعة الصيت بين جميع الخلفاء والامراء والقضاة والشعراء والمؤلفين . بالاضافة الى احتفاظ السكان الاصليين بها في حين اصبحت اللغة اللاتينية (الفصحى) حبيسة الكنائس والاديرة ولم يلتفت لها الا رجال الدين فقط (٦٢) .

ان المجتمعات التي ورثها الحكام النصارى كان السكان فيها مسلمون ومسيحيون ويهود يتكلمون العربية والرومانسية ولم يكن من السهل على هؤلاء ترك لغتهم والتحدث باحدى اللهجات الاسبانية المختلفة كالقشتالية والاراغونية والبرتغالية والغاليسية والقطلانية او غيرها من اللهجات الاخرى .ان الوثائق توضح بجلاء استخدام السكان على اختلاف اديانهم للغة العربية في الكثير من معاملاتهم او على الاقل مع معاملاتهم مع المدجنين كما ان الكثير من الاماكن في مدينة وشقة قد احتفظت باسمائها العربية الى وقت متأخر من القرن الثالث عشر كما يتبين من خلال احدث وثيقة بين الوثائق الموجودة والتي يعود تأريخها الى عام (٦٦٧ هـ / ١٢٦٩ م) وقد تناولنا هذا الموضوع بشيء من التفصيل في حديثنا عن خطط مدينة وشقة بعد سقوطها .

يلاحظ من بين الوثائق – وثيقة رقم (٧) – انها كتبت بلغتين عربية واخرى (رومية) – ونعني بها اللاتينية الرسمية المستخدمة في الكنائس والمحاكم وهي تختلف عن الاسبانية الدارجة والتي تعرف بالرومانسية . هذه الوثيقة تم توقيعها من قبل المدجنين والنصارى الموجودين في وشقة وقد ذكر نص الوثيقة الذي كتب بالعربية ان هناك نسخة من هذا العقد كتبت بـ (الرومية) ويظهر من ذلك ان هناك بعض العقود الموقعة بين اطراف من المدجنين والنصارى كانت تكتب بالعربية واللاتينية اذ يشير احد الباحثين ان المحاكم في المناطق التي كانت خاضعة لسلطة النصارى كانت تستعين بمترجمين يقومون بترجمة نصوص العقود او الاحكام الصادرة الى اللاتينية وان اولئك المترجمون كانوا يقومون احياناً بترجمة الوثائق اللاتينية الى لغة الرومانس (المحكية) او اللاتينية الدارجة

والتي تقتضي الحال ان تكون مفهومة من قبل الطـــرفين المـــدجنين والمســـيحيين [٦٣] ان استخدام (اللاتينية الرسمية) . كان من اجل اولئك النصارى النازحون من الشمال والـــذين لا يتكلمون لا العربية ولا الرومانسية التي كان يتكلمها المسيحيون الذين عاشوا فـــي ظـــل الحكم العربي لقرون طويلة .

من جانب اخر فان للوثائق اهمية كبيرة اذ انها تنقل بعـــض التعـــابير الاســـبانية المعربة بلسان المدجنين في ذلك الوقت سواءاً كانت اسماءاً لبعض المهن او المناصـــب او المؤسسات الدينية . ومن هذه الاسماء : ارسذياقني (رئيس شمامسة) وتلفـــظ بالاســـبانية (Arcediano) ، وشقرشطانه (خادم او قيم او ســـادن الكنيســـة) وتلفـــظ بالاســـبانية (Sacristano) بريوقة (خوري) وتلفـــظ بالاســـبانية (Parroco) ، وكلمـــة قَمْـــرَة وتعني نصراني وتلفظ بالاســـبانية (Cristo) ، كنبانتـــه (ديـــر) وتلفـــظ بالاســـبانية (Convento) ، منجش والمعنى الحرفي للكلمة راهبات لكن على الارجح فـــان التعبيـــر يرد في الوثائق بمعنى دير الراهبات وتلفظ بالاســـبانية (Manjas) ، الابيتـــر وتعنـــي بيطري وتلفظ بالاسبانية (Albeitar) ويمكن ملاحظة الاصل العربي للكلمـــة ، كســـناره وتعني طباخ وتلفظ بالاسبانية (Cocinero) .

المبحث الرابـــع

(٣) الحياة الاقتصادية : -

العملة وانواعها : -

تطلعنا الوثائق على نوع من انواع النقد المتداول بين السكان فـــي ذلـــك الوقـــت ويمكن ملاحظة ان الدينار الفضي هو العملة الاكثر استخداماً وتداولاً للســـكان فـــي مدينـــة وشقة حيث ترد بعض العبارات التي تشير الى ذلك في جميع الوثائق الموجودة تقريباً مثـــل " الف ومائة دينراً [كذا] قناشر فضة من السكة الباقية الان بوشقة ... " ولا يوجـــد بـــين الوثائق ذكر للدنانير الذهبية الا ان الذهب استخدم في عمليات البيع والشـــراء كمعـــدن لـــه قيمته المادية لقطعة ارض . وكانت وحدة الوزن فيه بالمثقال (مئة مثقـــالاً واحـــدة مـــن

ذهب الفنشية وازناً مقلباً وعشرون دينراً [كذا] زائدة قناشير فضة من السكة الجارية الان ...) .

من جانب اخر فان المعلومات الواردة في الوثائق حول اسعار الاراضي تمكننا من تحديد اسعار الذهب اذ تبين ان معدل الزيادة الحاصلة في اسعار الاراضي هو بمعدل دينار واحد او اكثر بقليل سنوياً للفدان الواحد فاذا كان سعر الفدان (٦٠ دينار) عام (٥٩٨ هـ / ١٢٠٢ م) وسعر كرم (١٠٠ مثقال ذهب وعشرون دينار فضة) عام ٦٢٧ هـ / ١٢٣٠ م فان هذا يعني ان سعر المثقال الواحد من الذهب يساوي حوالي ٠.٦٨ جزء من الدينار الفضي تقريباً . بغض النظر عن الفرق بين سعر الفدان وسعر الكرم .

ان المعلومات المتوفرة من خلال الوثائق تؤكد ان الدنانير الذهبية لم تكن متداولة في مملكة اراغون في القرن الثالث عشر وان الدنانير الفضية هي التي كانت سائدة فيها وهذا ماتدعمه الوثائق . على ان الدنانير الذهبية تدفقت الى البلاد عن طريق التجارة مع المغرب حيث يشير احد الباحثين الى ذلك بقوله " وكانوا يتقاضون (أي التجار) نقوداً ذهبية ، وابهرت الدنانير المضروبة في مختلف دور السكة الاسلامية (اهل كتالونيا) وقلما كانوا يعرفون في بلادهم في القرن الثالث سوى نقود الفضة والنحاس " (٦٤) .

الضرائب : -

ان نوعاً من الضرائب كان يأخذ من قبل الحكومة او الكنيسة على العقارات التي يتم بيعها وهو ثلث عن العقار المباع او ثلث مساحة ذلك العقار في حالة بيع ارض زراعية ويظهر من خلال بعض العبارات مثل ((استقر الثلث الثالث بيد المبتاعون[كذا] ليقسموا ذلك على العادة المعلومة ...)) او ((واستقر الثلث الثالث من جزء الجنان المذكور فوق هذا بيد المبتاعين المذكورين يدفعاه لثقة السلطان ايده الله على المتعارف ...)) ويبدو ان هذه النسبة كانت ثابتة وتلحقها ضريبة اخرى تقدر حسب ما يراه المسؤولون عن تقدير الضرائب عن الارض المباعة ففي نفس الوثيقة وهي الوثيقة (١٢) ترد عبارة ((ومضاف الى ما ذكرنا ان الجزء الثاني من الجنان (أي الثلث الثاني) المذكور ... يؤدي طبل (أي ضريبة) في كل عام احد عشر رطل من زيت

الزيتون ابداً الابد وبأداء ذلك التزم المبيع المذكور والطبل المذكور يدفعاه المبتاعين لدار شنت جروس وهو من المنجش كل عام في اول يوم من رمضان النصارى الكبير...)) .

وفي وثيقة رقم (٧) والتي كان موضوعها تعاوض بين احد المدجنين واحد الاسبان نرى ان احد الطرفين وهو من المدجنين يدفع ضريبة عن الارض التي بحوزته ((خمسين دنانير قناشير على وجه الطبل دائماً مستمراً الى ان يرث الله الارض ومن عليها وهو خير الوارثين ويوديا ذلك يوم شنت مرية من شهر شتنير ...)) هذا يعني ان الارض المباعة فقط هي التي يدفع مشتريها ضريبة الثلث او ضريبة عينية اما في حالة التعاوض فان ضريبة الثلث ترفع وتدفع نسبة من الارباح سنوياً من قبل المدجنين .

في بعض عقود البيع التي تمت بين بعض رجال الدين وبعض المدجنين فان رجال الدين لا يدفعون الضريبة التي يدفعها المشتري العادي للارض . وتشير الوثيقة رقم (٥) الى نوع اخر من الضرائب وهي الضرائب المفروضة على الفلاحين (المدجنين) يدفعونها عن محاصيلهم على الارجح سنوياً وهي ضريبة العشر وهناك ضريبة اخرى تذكرها الوثائق تدعى (برميسية) وهاتان الضريبتان تدفعان للكنيسة نقداً او عيناً . كانت هذه الضرائب تمثل بالنسبة للاسبان رمز الخضوع الذي فرضه الغالب على المغلوب وهي تشبه الى حد بعيد ما فرضه الفاتحون على سكان البلاد عقب الفتح العربي لاسبانيا [٦٥] .

على اية حال ، فان الوثائق موضوع البحث تبين بشكل واضح ثقل الضرائب التي كانت تفرض على البيوع والمبادلات العقارية وان اغلب تلك الضرائب كانت تتقاضاها الكنيسة خاصة من المدجنين .

اوضاع الفلاحين : -

كانت اوضاع المسلمين عموماً في الممالك الاسبانية ومنها مملكة اراغون في بداية حركة الاسترداد اوضاعاً جيدة ومستقرة ذلك ان سياسة الملوك الاسبان كانت تتجه نحو التسامح والاعتدال في بداية الامر كانت وشقة كغيرها من المدن التي سقطت منذ وقت مبكر وضمنت معاهدة الاستسلام جانباً من ذلك التسامح المعتدل . ومن المعروف ان المسلمين كانوا يشكلون اغلب السكان العاملين في مجال الزراعة والري والمجالات

الاقتصادية الاخرى وهم اصحاب الخبرة الطويلة في تلك المجالات وان نفيهم او طـــردهم سيؤدي الى خسارة اقتصادية كبيرة . من اجل ذلك حرص الملك على ابقائهم في اراضيهم على ان يكونوا اتباعاً مطيعين يدفعون الضرائب ويؤدون ما علـــيهم مـــن واجبـــات تجـــاه اسيادهم مقابل ان يعيشوا بسلام وان تمنح لهم بعض الحريات الدينية والمدنية .

يمكن رصد بعض مظاهر الحرية التي منحت للمسلمين –فيما يخـــص الجانـــب الاقتصادي – من خلال ادارة ممتلكاتهم اذ حرص الملوك على عـــدم التـــدخل فـــي ذلـــك الجانب وتركت لهم مهام ادارة امورهم وتسوية خلافاتهم من خلال بعـــض التنظيمـــات او الهيئات الاجتماعية التي كانت معروفه قبل سقوط المدن بيد النصارى وكمثال واضح علـــى ذلك محكمة المياه في بلنسية التي كانت واحدة من اهم المؤسسات الاجتماعية التـــي كانـــت تنظم توزيع المياه بين الفلاحين اذ ابقى عليها الملك خايم الاول بعد استيلائه على المدينـــة لاهميتها ومنحها الكثير من الامتيازات حتى انه لم يفرض على المياه المخصصة للبســـاتين أي ضريبة (٦٦) .

يمكن معرفة ومن خلال الوثائق الموجودة بـــان المـــزارعين المـــدجنين تمتعـــوا بحرية كاملة في بيع اراضيهم او معاوضتها فهناك عقود بيع وشراء ومعاوضة تمت بـــين مسلمين ونصارى او بين مسلمين ومسلمين اخرين الا ان هذه الحرية اصبحت مقيدة فيمـــا بعد بموافقة الملك اذ لم يكن بمقدور المسلم ان يبيع اراضيه الى نصراني لكـــن لـــه مطلـــق الحرية ان يبيعها الى مسلم اخر . ولعل هذا التشريع جاء بعد سنوات طويلة مـــن ســـيطرة النصارى على المدن الاسلامية كرد على الهجرة التي كانت تهدد ببوار الارض الزراعيـــة والتأثير على موارد البلاد واقتصادها (٦٧) .

وفضلاً عن اولئك الفلاحين الذين كانوا يمتلكون اراض زراعية كان هنـــاك فئـــة اخرى من الفلاحين الذين يعملون في اراض تابعة للملـــك او للنـــبلاء هـــذا النـــوع مـــن الارتباط كان يسمى (الشريك) ومن الممكن النظر الى هذا الصنف من الفلاحـــين علـــى انه نوع خاص من التبعية . لان هؤلاء الناس كانوا مرغمين على فلاحة قطعة محددة مـــن الارض مقابل شروط معينة من الارض من بينها ان لا يجيز المزارع على ترك ارضـــه المحتازة التي يفلحها وهي ارض يتيح لها القانون ان يورثوها لابنائه كي يفلحوهـــا وكـــان

المالك لا يستطيع ان يطرد الشريك حتى لو تقدم فلاح اخر بشروط اكثر فائدة [٦٨](**********) .

لكن من جانب اخر يلاحظ ان اولئك الفلاحون او حتى الحرفيون عانوا كثيراً من ثقل الضرائب التي فرضت عليهم وكان الكثير منهم يعيشون حياة الفقر والفاقة لعل الوثائق تفصح عن جانب من تلك الاوضاع . فاغلب الوثائق التي تم التعاقد فيها بين نصارى ومسلمين يظهر فيها المسلمين كبائعين لاراضيهم او كمقترضين لمبالغ من الاموال من شخصيات نصرانية ولعل هذا ينبئ عن الاوضاع الاقتصادية الصعبة التي كان يعيشها الفلاحون نتيجة لثقل الضرائب التي فرضت عليهم من قبل الكنيسة او الملك – والتي تم الحديث عنها سابقاً – فقد ادرك الكثير من السكان المسلمين ما ستؤول اليه اوضاعهم في ارض لم يعد فيها الا ان يعيشوا تحت حكم خصومهم يعاملون كمغلوبين تضطهدهم الكنيسة ويتربص بهم الملك يسلبهم كل ما يملكون من اجل ذلك فقد بادر الكثير منهم لمغادرة المدينة بعد بيع اراضيهم ومنازلهم والاتجاه الى المناطق التي كانت لا تزال تحت حكم المسلمين في ذلك فقد تدفق الكثير من السكان النصارى من الشمال بخاصة مدينة سرقسطة وقاموا بشراء الاراضي والعقارات التي كانت بحوزة المسلمين واستخدام اعداد منهم للعمل فيها كفلاحين اذ لم يكن السكان الجدد من اصحاب الخبرة في الزراعة فضلاً عن ان معظمهم كانوا من الطبقة الارستقراطية وهم بذلك لا يمكنهم الاستغناء عن المسلمين في زراعة مساحات واسعة من الاراضي .

منذ ان اتسع نطاق الغزو الاسباني في اراضي الاندلس اخذت اوضاع المسلمين بالتبدل وزاد عددهم في مختلف المناطق المفتوحة . كانت الكنيسة تبغض اولئك المسلمين وترى في احتفاظهم بدينهم ولغتهم نوع من التحدي وتأخذ على ملوك قشتالة واراجوان تسامحهم في معاملتهم وتسعى جاهدة لتحريضهم على اتباع سياسة الانتقام والعنف ازاء اولئك الرعايا المسلمين ومنذ اوائل القرن (١٣) تتوالى اوامر البابوية وقراراتها ضد المدجنين والحظ على استرقاقهم او تنصيرهم . وكان لابد للسياسة المتسامحة ان تتغير في النهاية استجابة لضغط الكنيسة وتغير ميزان القوى بين المسلمين والنصارى في اسبانيا [٦٩] .

ان الاطلاع على القوانين الصادرة من قبل الاراغونيين ودراستها يوضح بجلاء ان جميع تلك القوانين تصب في قناة تحطيم المجتمع المدجن تمهيداً للقضاء عليه ولكن بصورة تدريجية ويمكننا ان نستشف من خلال القوانين الصادرة منذ عهد الملك خايم الاول بعد احتلاله لبلنسية عام (٦٣٦ هـ = ١٢٣٨ م) ومن تلاه من الملوك الاراغونيين الى أي مدى كانت اوضاع المسلمين تسير من سيئ الى اسوء ففيما يتعلق بالفلاحين وعلاقاتهم بالسادة الاقطاعيين . وكانت القوانين الصادرة تعطي للاقطاعيين الكثير من الامتيازات التي تمكنهم من اضطهاد اتباعهم والسيطرة عليهم سيطرة تامة . اذ اصدر الملك خايم الاول قانوناً يحرم فيه على المزارعين المسلمين العاملين لدى الاقطاعيين الذين يهربون في بعض الاحيان من ظلم سادتهم او من عسف سلطان الدولة اللجوء الى الكنائس ويلزم الكنيسة بتسليم اللاجئ اليها خلال ثلاثة ايام ، في عام (٦٨٢ هـ = ١٢٨٣ م) اصدر الملك بيدرو مجموعة من القوانين منها : انه يلزم المسلمين واليهود بان يقسموا يميناً بان لا يقرضوا اموالاً بفوائد تزيد على ٢٠ % سنوياً تحت طائلة دفع غرامة قدرها خمس ليرات فضية ، ان شهادة المسلم الواحد غير المدعمة بوثيقة خطية تعتبر غير كافية للاثبات الا اذا وقعت الشهادة خلال خمس عشر يوماً من تاريخ تسليم مبلغ الدين ، يسقط الدين غير المعقود امام القضاء بعد ست سنين حينما يكون المقرض مسلماً او يهودياً . كما اصدر الملك الفونسو الرابع مجموعة من القوانين كان اهمها انه يحق للسيد الاقطاعي بأن يقضي وحده في الدعاوى ضد المسلمين حينما لا تكون الجريمة مما يعاقب عليه بأكثر من الغرامة وانه يحق للسيد الاقطاعي ان يحتفظ لنفسه بجميع عائدات الغرامات المحكوم بها . واصدر الملك بيدرو الرابع قانوناً حرم فيه على المسلمين ترك المملكة للهجرة الى افريقيا او غرناطة حتى لو دفعوا خمس اموالهم كما كانوا يفعلون قبلاً (**********) ، اصدر الملك مارتين قراراً يحرم على المسلمين الانتقال من اقطاعة الى اخرى قبل تسوية الحساب عن الاراضي التي يأخذونها بالمزارعة ، اذا بدل العربي مقامه بدون موافقة السيد الاقطاعي يفرض عليه الرق مع زوجته واولاده ويقسم ناتج بيعه ومصادرة امواله اثلاثاً : ثلثاً للملك وثلثاً لامير الاقطاع وثلثاً للسيد الاقطاعي مالك الارض . ويجب على السيد الاقطاعي الذي لجأ عربي الى ارضه ان يسلمه خلال ثمانين يوماً من الانذار النهائي لتسليمه تحت طائلة غرامة قدرها

(١٠٠٠) فلوران ، في عهد الملك فرناندو الاول صدرت القوانين التالية : انه يحرم على المسلمين الخروج من المملكة الا في حالة التحاقهم بأسيادهم اذا كانوا في خدمتهم الشخصية واذا سافروا للتجارة وفي هذه الحالة يمنعون من اصطحاب ابنائهم الذين تقل اعمارهم عن ١٤ عاماً ، وضع احياء المسلمين تحت مراقبة مشرف نصراني او ضابط شرطة نصراني) . في عهد الملك الفونسو الرابع صدر قانون يقضي بان يشمل امر منع هجرة المسلمين حتى المسلم الذي حصل على موافقة السيد الاقطاعي الذي يعمل عنده (٧٠) . هذه القوانين وغيرها والتي صدرت في فترات متفاوتة وهي قليل من كثير مما اصدره ملوك اراغون يضعنا امام كثير من الحقائق التي تتعلق بالوضع القانوني للمدجنين في الممالك النصرانية فبالرغم من كل الامتيازات التي منحت للمسلمين ابان تسليم مدنهم وتوقيعهم لمعاهدات الاستسلام الا اننا نرى تلك المعاهدات قد الغيت او مسخت تدريجياً فيما بعد (٧٠) .

الاراضي الزراعية واساليب الري : –

تكشف الوثائق موضوع البحث عن بعض المعلومات المهمة – وان كانت قليلة – حول الزراعة والري واسعار الاراضي بعد سقوط مدينة وشقة في يد النصارى فبالنسبة لوحدة القياس المستخدمة لتحديد مساحة الارض هي الفدان وقد جاء ذكره في اكثر من وثيقة . وكمثال على ذلك ما ورد في الوثيقة (٣) حيث تقول : " باعت املى بنت صالح بن محمد المذكورة في العقد في اعلى هذا الكتاب من ابنتها خمالي بنت مسعود .... جميع الفدانين المحدودين .... " . ونرى ان اغلب الوثائق التي اشارت الى بيع او شراء اراضي زراعية بعد الاتفاق على اتمام عملية البيع وورود هذه العبارة في صيغة العقد وهي ان الاتفاق تم " على بيع الاسلام وشرطه ومرجع الدرك بين اهله ... " وعلى الارجح فان المقصود بكلمة (مرجع الدرك) هو كناية عن وحدة قياس الارض المتفق عليها عند المسلمين وهي (الفدان) . ويمكننا ان نستدل على ذلك من ان كلمة مرجع قد وردت عند ابن الخطيب في حديثه عن الاراضي الزراعية في غرناطة حيث استخدم (المرجع) كوحدة قياس لحساب مساحة الاراضي الزراعية (٧١) .وهو يعدل (٥٠٠ م ٢) تقريباً وقد انتقل الى الاسبانية في صورة (Marjal) (٧٢) .

تعطي الوثائق فكرة عن اسعار الاارضي الزراعية في مدينة وشقة بين القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين ، السادس والسابع الهجريين فسعر الفدان الواحد يتراوح بين ٢٠ – ٢٥ دينار بين عامي(٥٤٨ هـ = ١١٥٤ م / ٥٤٩ هـ = ١١٥٥ م) في حين يرتفع السعر ليصل الى (٦٠) دينار عام (٥٩٨ هـ = ١٢٠٢ م) ويبدو من خلال ذلك ان الارتفاع في اسعار الاراضي كان بنسبة ثابتة ومستقرة فهو لا يزيد على دينار واحد او اكثر بقليل في كل عام . ومن خلال هذه المعلومة يمكننا ان نستدل على ان الاوضاع الاقتصادية في المدينة شهدت نوعاً من الاستقرار فالاوضاع الاقتصادية المزعزعة والمتازمة تؤدي في احيان كثيرة الى ارتفاع ملحوظ في اسعار السلع والعقارات .

وتحدد بعض الوثائق اسعار لعدد من الجنان والبساتين الموجودة في المدينة ويظهر من خلالها ان هناك فرق بين اسعار الاراضي التي تزرع بالفواكه والاشجار المثمرة والتي يشار اليها بـ (كرم) او (جنان) والاراضي التي تزرع بمحاصيل اخرى مثل الحبوب وغيرها ، والتي يشار اليها بتحديد مساحة الارض المباعة فقط . وكلمة كرم تشير الى ان معظم الارض مزروعة بأشجار العنب او الكرم ولو لم يكن هناك فرق بين سعر كل من النوعين لأشير الى مساحة الارض فقط دون الاشار اليها بكلمة (كرم او جنان) هذا يعني ان الارض لم تكن اسعارها تحدد تبعاً لمساحة الارض وموقعها فقط ولكن ايضاً تبعاً لما يزرع فيها خاصة الاشجار المثمرة .

وبالنسبة للري واساليبه المتبعة من قبل الفلاحين في المدينة فأننا لا نجد في الوثائق معلومات كثيرة عن هذا الموضوع سوى انه يمكن تحديد بعض معالمه من خلال بعض الاشارات الى اعتماد الزراعة المسقية من قبل الفلاحين حيث تشير الوثائق الى انتشار السواقي في المناطق التابعة لمدينة وشقة ومن المسلم به ان المياه كانت تصل الى الاراضي الزراعية من تلك السواقي بواسطة انظمة الري المعتمدة في تلك الازمان النواعير والقنوات وغيرها والتي تزود المناطق التابعة للمدينة بحاجتها من المياه وقد عرف عن الاندلسيين حذقهم بأساليب الري المختلفة –وكما وضح سابقاً –فقد كان هذا احدى الاساليب المهمة التي دفعت الملوك النصارى الى الاعتماد بشكل كبير على

المسلمين في ادارة مؤسسات الري . ولم يسمح لهم بمغادرة البلاد او الهجرة بسبب حاجة الاسبان لهم في تعليم النصارى لاساليب ادارة تلك المؤسسات والتقنيات (٧٣) .

الخاتمة :

من خلال الموضوعات التي تناولها البحث بالتفصيل يتبين ان المدن التي سقطت بيد الملوك الاسبان كانت تضم اعداداً من المسلمين الذين لم يهاجروا عقب سقوط مدنهم وان هؤلاء عاشوا تحت حكم النصارى وان مجتمع المدجنين كان مجتمعاً منظماً بما يتلائم وطبيعة هؤلاء المسلمين وعلاقاتهم بالسلطة السياسية وظروفهم ووضعهم القانوني ، والاجتماعي .

احتفظ المسلمين بدينهم وعاداتهم وتقاليدهم لفترة من الزمن وكان للمجتمع المدجن خصوصياته التي تميزه عن غيره كما كان هؤلاء يتحدثون العربية عدا اللغة الاسبانية الدارجة التي سميت بلغة (الرومانس) .

كما يتبين من خلال البحث الكثير من المعلومات حول الجانب الاقتصادي كمعاملات البيع والشراء والمعاوضة واشكالها ، ويبين البحث ثقل الضرائب التي كانت مفروضة على السكان المسلمين من خلال تعدد انواعها ونسبتها الكبيرة . كما يتوضح من خلال الوثائق نوع العملة التي كانت متداولة وهي الدينار الفضي .

من خلال تفاصيل البحث يتبين ان بعض القوانين التي طبقت في الكثير من المعاملات بين المدجنين وغيرهم كانت متاثرة بشكل كبير بما كان ايام دولة الاسلام بل ان هناك عبارات تشير صراحة الى هذه الحقيقة .

قائمة المصادر والمراجع :

(*) الرومانسية : هي اللغة الاسبانية الدارجة والتي سنتناولها بالتفصيل في الصفحات القادمة .

(١) ابو عبد الله محمد بن احمد الادريسي (ت ٥٦٠ هـ) ، نزهة المشتاق في اختراق الافاق ،ج ٥، ص ٧٢٥ – ٧٣٣ ؛ محمد بن عبد المنعم الحميري(ت ١٧٥٣ و ٧٢٧) ،

الروض المعطار ، في خبر الاقطار ، تحقيق ، احسان عباس ، (لبنـــان : ١٩٧٥) ، ص ٦١٢ ، ١٣٣ ، ٥٠٧ ؛

James M . Houston " Huesea " Encyclopedia Americana International (America : 1976) , Vol 14 , P . 539 .

(٢) محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف منذ قيامها حتى الفـتح المرابطـي،(القـاهرة : ١٩٦٠) ، ٢٥٥ .

(٣) خليل ابراهيم السامرائي ، الثغر الاعلى الاندلسي ، (بغداد : ١٩٧٦) ، ص ٥٧ .

(٤) محمد عبده حتاملة ، ايبيريا قبل مجيء العرب المسلمين ، (عمـان : ١٩٩٦) ، ص ٩٥ – ٩٧ ؛ السامرائي ، المرجع السابق ، ص ٥١ ، عنان ، المرجع السابق ، ٢٥٥ .

(٥) ابي عبد الله محمد بن ابي بكر الزهري ، كتاب الجغرافية ، تحقيق ، محمد حاج صادق ، (دمشق : ١٩٦٨) ، ص ٨٢ ؛ السامرائي ، المرجع السابق ، ص ٦١ .

(٦) ابي مروان عبد الملك بن الكردبوس التوزري ، تـاريخ الانـدلس لابـن الكردبـوس ووصفه لابن الشباط عاش اواخر القرن ٦ هـ ، تحقيق احمد مختـار العبـادي ، معهـد الدراسات الاسلامية في مدريد ، المجلـد الثالـث ، ١٩٦٥ – ١٩٦٦ ، ص ٨٥ ؛ لسـان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ) ، اعمال الاعـلام ، تحقيـق ، ليفـي بروفنسـال ، (بيروت : ١٩٥٦)، ص ١٨١ .

(٧) عنان ، المرجع السابق ، ص ٢٧٨ .

(٨) ابن الخطيب ، المصدر السابق ، ص ١٧٢ ؛ عبد الرحمن بن خلدون ، العبر وديـوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السـلطان الاكبـر ، (دار الكتاب اللبناني : ١٩٦٨) ، ج ٤ ، ص ٣٥٢ ؛ يوسف اشباخ ، تاريخ الاندلس فـي عهد المرابطين والموحدين، ترجمة: محمد عبد الله عنان،(القاهرة : ١٩٥٨) ،ص ١٠٥ .

(9) Manuel Gonzalez Jimenez , La Condicion Socially Actividades Economics de Los Mudejares Andalues , Actas IV Simposio International de Madejarismo : Economia , Teruel , 17 – 19 de Septiembre de 1967 .

(١٠) عنان ، المرجع السابق ، ص ١١١ – ١١٢ .

(١١) ابن الكردبوس ، المصدر السابق ، مج ١٣ ، س ١٩٦٥ – ١٩٦٦ ، ص ١١٨ ؛ عنان ، عهد المرابطين ، القسم الاول ، ص ١٠٠ .

(١٢) ابن الكردبوس ، المصدر السابق ، ص ١١٩ .

(13) Jimenez , OP . cit , P . 415 .

بيير غيشار ، التاريخ الاجتماعي لاسبانية المسلمة من الفتح الى نهاية حكم الموحدين ، ترجمة : مصطفى الرقي ، بحث ضمن كتاب : الحضارة العربية الاسلامية في الاندلس ، تحرير ، سلمى الخضراء الجيوسي ، (بيروت : ١٩٩٩) ، ص ٩٩٠ ؛ اسعد حومد ، محنة العرب في الاندلس ، (المؤسسة العربية للدراسات والنشر) ، د . ت ، ص ١٣٦ – ١٣٧ .

(14) Jimenez , OP . cit . P . 414 .

(١٥) حومد ، محنة العرب ، ص ١٣٧ .

(**) سنتناول المعنى الحرفي والاصطلاحي في الصفحات التالية .

(١٦) محمد عبد الله عنان ، نهاية الاندلس وتاريخ العرب المنتصرين ، (القاهرة : ١٩٥٩) ، ص ٥٤ ؛

J . N . Hillgarth . the Spanish Kingdoms 1250 – 1616,(Oxford : 1976) , Vol . I . P . 178 – 188 .

(١٧) عنان ، نهاية الاندلس ، ص ٥٨ .

(١٨) حومد ، محنة العرب ، ص ١٣٨ .

(١٩) ليونارد باتريك هارفي ، المدجنون ، ترجمة : عبد الواحد لؤلؤة ، بحث ضمن كتاب الحضارة العربية الاسلامية في الاندلس ، تحرير : سلمى الخضراء الجيوسي ، ج ١ ، ص ٢٨٥ – ٢٩٦ .

(٢٠) جمال الدين محمد بن مكرم الانصاري ابن منظور (ت : ٦٣٠ – ٧١١ هـ) ، لسان العرب ، (الدار المصرية للتاليف والترجمة) ، (القاهرة : د . ت) ، ج ٣ ، ص ١٨٨ .

(٢١) غيشار ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ، ص ٩٨٩ ؛ جيرين دودز ، تراث المدجنين في فن العمارة ، ترجمة جاسر ابو صفية ، بحث ضمن كتاب : الحضارة العربية

الاسلامية في الاندلس ، (بيروت : ١٩٩٩) ، ج ٢ ، ص ٨٥٩ ؛ فبيارمو فوستافينو ، حول مفهوم المدجن الاسباني وابعاده الاجتماعية والفنية والادبية ، المجلة التاريخية المغربية ، ع ٣ ، جانفي / يناير ، ١٩٧٥ ، ص ٦١ – ٦٢ ؛ هارفي ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٨٥ .

(٢٢) ابي العباس احمد بن يحيى بن محمد التلمساني الونشريشي (ت ٨٣٤ – ١٩٤ هـ / ١٤٣٠ – ١٥٠٨ م) ، اسنى المتاجر في بيان احكام من غلب النصارى على وطنه ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر ، تحقيق ، حسين مؤنس ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد ، ١٩٥٨ ، مج ٥ ، ع ١ – ٢ ، ص ١٣٩ – ١٤١ .

(٢٣) محمد حجي ، الموريسكيون والجهاد البحري في المغرب الكبير ، بحث ضمن كتاب : الموريسكيون في المغرب ، مطبوعات اكاديمية المملكة المغربية (شفشاون : ٢٠٠٠) ، ص ٥٩ – ٦٠ .

(***) ترد هذه اللفظة محرفة الى (مدجلر) في الوثائق العثمانية ، وكذلك يشير الحجري الى ان مسلمي الاندلس (الموريسكيين) كانوا يسمون ببلاد الترك بمدجلين ، انظر : عبد الجليل التميمي ، رسالة من السلطان العثماني احمد الاول الى دوج البندقية ، حول الموريسكيين ، المجلة التاريخية المغربية ، ع ٧ – ٨ ، (تونس : ١٩٧٧) ، ص ١٤٠٧ ؛ احمد بن قاسم الحجري ، (ت . بعد ١٦٤٠ م) ، ناصر الدين على القوم الكافرين ، تحقيق وترجمة : شوردفان كوتكز فلد واخرون ، (مدريد :) ، ص ٥٠ .

(****) يشير الدكتور محمد عبد الله عنان الى ان المؤلف يذكر انه انهى كتابه سنة (٩٤٧ هـ) أي بعد مضي خمسين عاماً على سقوط غرناطة ، انظر : عنان ، نهاية الاندلس ، ص ١٨٢ .

(٢٤) مؤلف مجهول ، نبذة العصر في اخبار ملوك بني نصر ، (العرائش : ١٩٤٠) ، ص ٢٨ ، ٣٤ ، ٤٤ .

(٢٥) عبد المجيد التركي وثائق عن الحجرة الاندلسية الى تونس ، مجلة الجامعة التونسية ، ع ٤ ، ١٩٦٧ ، ص ٢٨ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٧٢ ؛ جان ليون الافريقي ، (الحسن الوزان) ، وصف افريقيا ، ترجمة عبد الرحمن حميدة ، الرياض ، ص ٤٠٤ – ٤٠٥ ؛ الحجري ، المصدر السابق ، ص ٢٤ ، ٢٥ ، ٥٠ .

(٢٦) ابن الخطيب ، المصدر السابق ، ص ١٨١ ؛اشباخ، المرجع السابق ، ص ٥٩ ؛ غيشار ، المرجع السابق ، ج ٢٢ ، ص ٩٨٩ .

(*****) ان لفظ مستعرب لم يكن مستخدماً بصورة رسمية من قبل السكان في الاندلس في تسمية النصارى واليهود – الذين عاشوا في ظل الحكم الاسلامي – وانما كان لفظاً جارياً على الالسن في اللغة الدارجة والدليل على ذلك انه لم يظهر في كتابات المؤرخين او الجغرافيين او الفقهاء ولكنه ظهر في وثائق العقود الجارية بين الناس ابتداءاً من القرن الحادي عشر الميلادي ثم في كتابات نصارى الاندلس سواءاً باللاتينية او الاسبانية القديمة (عجمية الاندلس) ابتداءاً من القرن الحادي عشر ايضاً . اما التسمية الرسمية التي عرف بها النصارى الذين عاشوا في ظل الحكم العربي فهي (العجم او النصارى او نصارى الذمة) تفريقاً لهم عن من اسلم منهم الذين عرفوا بالاسالمة او المسالمة او اولادهم وهم (المولدون) .

انظر : حسين مؤنس ، فجر الاندلس ، (القاهرة : ١٩٥٩ م) ، ص ٤٢٥ – ٤٢٩ .

(٢٧) أ . س ترتون ، اهل الذمة في الاسلام ، ترجمة حسن حبشي،(دار المعارف: ١٩٦٧ م) ، ص ٤٣ ، ٥١ ، ٨٢

(٢٨) عبد الرحمن الحجي ، التاريخ الاندلسي ، (دمشق : ١٩٧٦ م) ، ص ٨٠ .

(٢٩) الونشريشي ، المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

(٣٠) هارفي ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٨٧ .

(٣١) هارفي ، المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ٢٩٥ .

(٣٢) عنان ، نهاية الاندلس ، ص ١٤٨ .

(******) عقد سلطان غرناطة (الغني بالله) مع (بيدرو الرابع) ملك اراجون معاهدة صلح لمدة ثلاثة اعوام من تاريخ عقدها وهو شهر رجب سنة ٧٦٨ هـ (مارس ١٣٦٧ م) وفيها يتعهد كل من الفريقين بان يمتنع رعاياه عن الاضرار بالفريق الاخر في البر والبحر في السر والجهر وان يكون لرعايا كل فريق حق التجول والمتاجرة بارض الفريق الاخر والمرور في البحر والبر دون اعتراض او مغارم غير عادية وان تطلق اراجون حرية الهجرة للمدجنين وان تمنع كل فريق عن معاونة اعداء الفريق الاخر .

انظر : عنان ، المصدر نفسه ، ص ١٤٨ .

(٣٣) التركي ، المصدر السابق ، ص ٣١ – ٣٣ .

(*******) تعاصر الوثائق فترة حكم دولة الموحدين التي تبدأ من عام (٥٤٠ هـ / ١١٤٥ م) الى عام (٦٤٣ هـ / ١٢٣٨ م) وبدايات عصر مملكة غرناطة التي قامت عام (٦٣٦ هـ / ١٢٣٨ م) وكان سقوطها عام (٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م) ومن جانب اخر فانها تعاصر حكم اربع ملوك حكموا اراغون احدى اهم واكبر الممالك الاسبانية في الشمال وهم : ردمير الراهب الذي بدأ حكمهُ عام (٥٢٨ هـ / ١١٣٤ م) واعتزل الحياة السياسية عام (٥٣١ هـ / ١١٣٧ م) كان نتيجة ذلك ان اتحد عرشا اراجون وقطلونية تحت حكم رامون برنجير الرابع بزواجه من الاميرة بيترونيا ابنة ردمير الراهب (٥٣١ هـ / ١١٣٧ م) – (٥٥٨ هـ / ١١٦٢ م) وبعد وفاة برنجير الرابع يخلف في حكم المملكة الفونسو الثاني (٥٥٨ هـ / ١١٦٢ م) – (٥٩٣هـ / ١١٩٦ م) وبعد وفاته يخلفه في الحكم ابنه بيدرو الثاني الكاثوليكي (٥٩٣هـ / ١١٩٦ م) – (٦١٠ هـ / ١٢١٣ م) ثم يأتي من بعده ابنه فايمي الاول (الفاتح) (٦١٠ هـ / ١٢١٣ م) – (٦٧٥ هـ / ١٢٧٦ م) ويعتبر خايمي الاول مؤسس مملكة اراغون الحقيقي وموطد استقلالها . ، انظر : عبد الرحمن علي الحجي ، التاريخ الاندلسي ، (دمشق – بيروت : ١٩٧٦) ، ص ٤٦٧ ؛ عنان ، عصر المرابطين (القاهرة : ١٩٩٠) ، الطبعة الاولى ، ص ٤٩٣ – ٤٩٩ ؛ عنان ، عصر الموحدين ص ٦٠١ – ٦٠٧ .

(٣٤) حنشتو بوسك بيلا ، الوثائق العربية المحفوظة في كاتدرائية وشقة ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد ، مج ٦ ، ع ١ – ٢ ، (مدريد : ١٩٥٧ م) ، ص ٣ في النص الاسباني ، ص ٣٠٦ من ملخص البحوث باللغة العربية .

(********) فيما عدا وثيقة واحدة وهي الوثيقة رقم (٥) التي ترد فيها الصيغة بشكل مختلف اذ تذكر ان البيع تم على " سيرة البلد " . ومن المرجح ان الصيغة وردت بهذا الشكل لان التعاقد تم مع الكنيسة بالذات وبارسال عدد من رجال الدين كممثلين عنها . وباعتبار ان الكنيسة اهم مؤسسة دينية نصرانية في الدولة فلا يجوز ان تذكر هذه العبارة في صلب العقد لان المسلمين كانوا رعايا او اقلية تقيم تحت الحكم النصراني .

(٣٥) هارفي ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٨٥ – ٢٩٨ ؛

Robert I . Burns , Moors Crusaders in Mediterran Spain , (London : 1978) . P . 453 – 458 . ; Robert Ignatius Burns Islam Under the Crusaders , (University Press : 1973) , P . 201 – 207 .

(*********) الطبل : هو ضريبة شخصية كان الناس يؤدونها عيناً وتعتبر معونة مالية للدولة مقابل الاعفاء عن الخدمة العسكرية وكان ذلك ايام الحكم العربي للاندلس : انظر : مؤنس ، فجر الاندلس ، ص ٥٨٠ ، اما في الوثائق موضوع البحث فان التعبير يعطي المعنى المطلق لكلمة ضريبة فهي تعبر عن عدة انواع من الضرائب المفروضة على البيوع والمبادلات وغيرها .

(٣٦) بيلا ، الوثائق ، ص ١١ : انظر مقدمة الناشر ، ص ٣٨ .

لمزيد من المعلومات عن المصطلحات الواردة انظر : رينهارت دوزي ، تكملة المعاجم العربية ، ترجمة محمد سليم النعيمي (منشورات وزارة الثقافة والاعلام ، ١٩٨١) ، ج ٣ ، ص ٣٦٧ – ٣٨٤ ؛ جمال الدين محمد بن مكرم الانصاري ابن منظور (ت : ٦٣٠ – ٧١١ هـ) ، لسان العرب ، (الدار المصرية للتاليف والترجمة ، (القاهرة : د . ت) ، ج ٣ ، ص ١٨٨ .

(٣٧) لسان الدين ابن الخطيب ، (ت ٧٧٦ هـ = ١٣٧٤ م) ، الاحاطة في اخبار غرناطة ، تحقيق : محمد عبد الله عنان ، (القاهرة : مكتبة الخانجي ، ١٩٧٣) ، ج ٢١ ، ص ١١٦ ؛ جيمس دكي ، غرناطة : مثال من المدينة العربية في الاندلس ، ترجمة عبد الواحد لؤلؤة : بحث ضمن كتاب : الحضارة العربية في الاندلس ، (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ط ١ ، ١٩٩٨ ، ج ١ ، ص ١٥٤ .

(٣٨) دكي ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٥٧ ؛ هند غسان ابو الشعر ، دراسة اقتصادية واجتماعية لمملكة غرناطة من ٨٢٤ هـ / ١٤٢١ م الى ٩٠١ هـ / ١٤٩٦ م اعتماداً على مجموعة الوثائق العربية الغرناطية من القرن التاسع الهجري = الخامس عشر الميلادي مجلة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد : ١٩٦١ م ، ص ٣٨ – ٣٩ .

(39) Islam Under the Crusaders , Robert Ignatius Burns (University Press : 1973) , P . 209 .

(٤٠) دكي ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٧٠ .

(٤١) غيشار ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٩٦٠ ؛ هارفي ، المرجع السابق ، ج ١ ، ٢٩٥ ؛

Jemenez , La Condicion Social Yactividades Economics , P . 420 .

(٤٢) شريف منير ، المدن الاسلامية ، كيف كان تخطيطها ... وكان بنائها ، مجلة العربي ، مج ١٦٠ ، سبتمبر ١٩٧٤ ، ص ١٤٣ .

(٤٣) الحميري ، المصدر السابق ، ص ٦١٢ .

(44) Burns , OP . cit , P . 146 – 147 .

(٤٥) الحميري ، المصدر السابق ، ص ٦١٢ ؛ الزهري ، المصدر السابق ، ص ٨٢ .

(46) Burns , OP . cit , 201 - 207 .

(٤٧) ذنون ، دراسات اندلسية ؛ . Hillgarth , OP . cit , P . 189 .

(**********) بنوتجيب : – هم من اعرق البيوتات العربية في تاريخ الاندلس وتتكون هذه الاسرة من فرعين : ١ – بنو هاشم وهم اصحاب الثغر . ٢ – وبنو صمادح التجيبيون الذين حكموا مدينة وشقة . وجدهم هو عبد الله بن المهاجر بن عميرة الداخل الى الاندلس مع جيش موسى بن نصير وفي عبد الرحمن بن عبد الله بن المهاجر يجتمع بنو صمادح مع بنو هاشم حكام الثغر . وكان ابو يحيى محمد بن احمد بن صمادح قد اصبح حاكماً على مدينة وشقة واعمالها منذ اواخر ايام هشام المؤيد بالله . ولما تولى سليمان الظافر الخلافة في سنة (٤٠٣ هـ) اقره على ولايته ، وكانت بينه وبين ابن عمه منذر بن يحيى التجيبي صاحب سرقسطة في البداية علائق مودة وسلام فلما انتهت ايام سليمان واغتصب بنو حمود الخلافة القرطبية سنة (٤٠٧ هـ) وعادت الامور الى اضطرابها ، ساءت العلائق بين منذر وابي يحيى وسار منذر الى وشقة في قواته واستولى عليها وفر ابو يحيى في اهله وولده ناجياً بنفسه ملتجئاً الى عبد العزيز بن ابي عامر صاحب بلنسية . وبذلك انتقل حكم المدينة الى الفرع الثاني من الاسرة التجيبية . وهو فرع بني هاشم حكام الثغر اذ استمر حكمهم لمدينة وشقة حتى عام (٤٣١ هـ = ١٠٣٩ م) عندما استولى سليمان بن هود على مقاليد الامور في منطقة الثغر الاعلى باكملها ومن ضمنها وشقة . ولتدخل منطقة الثغر الاعلى برمتها تحت حكم اسرة جديدة هي اسرة بني هود .

حول اسرة بني تجيب ، انظر : ابي عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي ابن الابار ، الحلة السيراء ، تحقيق ، حسين مؤنس ، (القاهرة : ١٩٦٣ م) ، ج ٢ ، ص ٢٤٦ ، ٧٩ ، ٨٠ ؛ ابن عذاري المراكشي ، البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب ، تحقيق : ليفي بروفنسال (بيروت : دار الثقافة ١٩٨٠ م) ، ج ٣ ، ص ١٧٩ – ١٨١ .

(٤٨) الحجي ، المرجع السابق ، ص ٤١ – ٤٦ ؛ مؤنس ، المرجع السابق ، ص ٣٧٨ .

(٤٩) عنان ، عصر الطوائف ، ص ٨٠ وما بعدها ، ٩٣ وما بعدها ، ١١٨ وما بعدها .

(٥٠) محمود مكي ، تاريخ الاندلس السياسي ، بحث ضمن كتاب : الحضارة العربية في الاندلس ، تحرير سلمى الخضراء الجيوسي ، (بيروت : ١٩٩٩ م) ، ج ١ ، ص ١١٩ .

(٥١) الحميري ، المصدر السابق ، ص ٦١٢ .

(٥٢) مؤنس ، المرجع السابق ، ص ٤٢٩ – ٤٣١ ؛ السامرائي ، المرجع السابق ، ص ١٧٥ ، ٣١٣ ، ٣٣٨ .

(٥٣) لسان الدين ابن الخطيب ، ت ٧٧٦ هـ ، الاحاطة في اخبار غرناطة ، تحقيق : محمد عبد الله عنان ، (القاهرة : ١٩٧٣ م) ، ج ٢ ، ص ١٢٣ ؛ ليفي بروفنسال ، الاسلام في المغرب والاندلس ، ترجمة : سيد عبد العزيز سالم وصلاح حلمي ، (مصر : مكتبة النهضة ، ١٩٥٦ م) ، ص ١٢٤ – ١٢٥ .

(٥٤) مؤنس ، المرجع السابق ، ص ٤٢٥ ، وما بعدها .

(٥٥) ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ١ ، ص ١٠١ ؛ مؤنس ، المرجع السابق ، ص ٥٢٣ – ٥٢٨ ؛

Louis Bertrand the History of Spain (London : 1969) , P . 19 – 20 .

(**********) احتضنت الاندلس ابان عصرها الاسلامي وفي ظل اجواء التسامح والتعايش السلمي بين الاديان المختلفة حركة بعث اللغة العبرية اذ نشأة هذه الحركة ونمت بين اظهر المسلمين وتحت اعينهم بل كان بعض علماء المسلمين يعينون اليهود على انشاء نحو لغتهم . فظهر عدد كبير من الشعراء والادباء واللغويين اليهود ممن كانوا يتكلمون العبرية والعربية واللغة الاسبانية الدارجة التي عرفت بلاتينية اهل الاندلس . نذكر منهم : حسداي بن شبروط ، ابن النغريلة ، دوناط بن براط وغيرهم . حول مزيد

من المعلومات ، انظر : مؤنس ، المرجع السابق ، ص ٥٢٣ ؛ ريموند شايندلين ، اليهود في اسبانيا المسلمة ، بحث ضمن كتاب : الحضارة العربية الاسلامية في اسبانيا ، ج ١ ، ص ٣٠٦ – ٣١١ ؛ تشارلز برنيت ، حركة الترجمة من العربية في القرون الوسطى في اسبانيا ، ترجمة : عمران ابو حجلة ، بحث ضمن كتاب : الحضJارة العربية الاسلامية في الاندلس ، تحرير ، سلمى الخضراء الجيوســـــي ، (بيروت : ١٩٩٩ م) ، ج ٢ ، ص ٤٤١ . بيير كاكيا ، الادب الاندلسي ، ترجمة عبد الواحد لؤلؤ ، بحث ضمن كتاب : الحضارة العربية الاسلامية في الاندلس ، تحرير ، سلمى الخضراء الجيوسي ، (بيروت : ١٩٩٩ م) ، ج ١ ، ص ٤٧٠ ؛ عنان ،عصر المرابطين والموحدين ، القسم الثاني ، ص ٧٢٣ .

(٥٦) ابن عذاري ، المصدر السابق ، ص ٢٦٤ – ٢٦٦ ؛ ابن الخطيــب ، الاحاطــة ، ج ١ ، ص ٤٤٠ ؛ عنان ، دول الطوائف ، ص ١٢٥ ؛ شايندلين ، المرجــع الســابق ، ج١، ص ٣٠١ – ٣١٤ ؛ جيرين دودز فنون الاندلس ، بحث ضمن كتاب : الحضارة العربيــة الاسلامية في الاندلس ، تحرير ، سلمى الخضراء الجيوسي ، ج ٢ ، ص ٨٧٩ .

(٥٧) حومد ، محنة العرب ، ص ١٤١ .

(٥٨) عنان ، دول الطوائف ، ص ٧٥ ؛ عنان ، نهاية الاندلس ، ص ٩٥ .

(٥٩) احمد بن محمد المقري التلمساني (ت ١٠٤ هــ / ١٦٣١ م) ، نفــح الطيــب مــن غصن الاندلس الرطيب ، تحقيق ، محمد محيي عبــد الحميــد ، (بيــروت : دار الكتــاب العربي ، د . ت) ، ج ٦ ، ص ٥٧ ؛ عنــان ، نهايــة الانــدلس ، ص ٥٤ ؛ هــارفي ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٩٧ .

(٦٠) انجل جنثالث بلنثية ، تاريخ الفكر الاندلســي ،(القــاهرة : ١٩٥٥ م) ، ص ٥٣٥ – ٥٣٦ .

(٦١) جنثالث ، المرجع السابق ، ص ٤٨٥ .

(٦٢) سهير القلماوي ومحمود مكي ، في الادب ، بحث ضمن كتاب : اثــر الاســلام فــي النهضة الاوربية ، تاليف نخبة من اساتذة التــاريخ ، (مصــر ، د . ت) ، ص ٣٢١ – ٣٣ .

(٦٣) بيرنيث ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٤٤١ – ٤٤٢ .

(٦٤) نجاة باشا ولدت سويسي ، التجارة في المغرب الاسلامي من القرن الرابع الى القرن الثامن للهجرة (تونس : الجامعة التونسية ، ١٩٧٦) ، ص ٧٥ .

(٦٥) مجهول ، المصدر السابق ، ص ٤١ – ٤٧ .

(٦٦) فيصل دبدوب . " بلنسية انظمة الري ومحكمة المياه فيها القائمة الى اليوم " مجلة العربي ، ع ١٥٧ ، كانون الاول ، ١٩٧١ ، ص ١٩٢ .

(٦٧) هارفي ، المرجع السابق ، ص ٢٩٢ .

(٦٨) هارفي ، المرجع نفسه ، ص ٢٩٥ ؛ غيشار ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٩٦ .

(**********) لا نلمح اشارة لمثل هذا التشريع في معاهدات الاستسلام الموقعة بين المسلمين والمسيحيين ولا حتى في الوثائق موضوع البحث . هذا يؤكد ان هذا القانون طبق فيما بعد .

(٦٩) عنان ، نهاية الاندلس ، ص ٦٢ .

(**********) ان اصدار مثل هذا القرار يؤكد ان هجرة المسلمين كانت مستمرة وبصورة كثيفة مما دفع الملك لاصدار هذا القرار .

(٧٠) حومد ، المرجع السابق ، ص ١٣٦ – ١٥٠ .

(٧١) ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ١ ، ص .

(٧٢) مؤنس ، الجغرافية والجغرافيون ، ص ٥٦٣ ؛ ابو الشعر ، المرجع السابق ، ص ٤٩ .

(٧٣) المقري ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٤٧ – ١٤٨ ؛ توماس . غليك ، التكنلوجيا الهيدرولية في الاندلس ، بحث ضمن كتاب : الحضارة العربية الاسلامية في الاندلس ، تحرير ، سلمى الخضراء الجيوسي ، مركز دراسات الوحدة العربية (بيروت : ١٩٩٩ م) ج ٢ ، ص ١٣٤٥ – ١٣٦١ .